# مقدمة
# في
# دراسة الفِرَق الإسلامية


تأليف

الدكتور محمد سيد أحمد المسيّر

أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين



مكتبة الإيمان

للطباعة والنشر والتوزيع

٤ ش أحمد سوكارنو ـ العجوزة

ت: ٣٤٥٢٣٠٢

الطبعة الثانية
١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

رقم الإيداع : ١٧١٠٥ / ٢٠٠٤م
الترقيم الدولى I.S.B.N.
977-5260-42-6

مكتبة الإيمان
للطباعة والنشر والتوزيع
٤ ش أحمد سوكارنو - العجوزة
ت: ٣٤٥٢٣٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى. . .

**أما بعد:**

فالإسلام ـ باختصار شديد ـ هو توحيد فى العقيدة، ووحدة فى المجتمع، وقد عبّر القرآن المجيد عن هاتين الكلمتين بتقوى الله والاعتصام بحبله، فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٢، ١٠٣].

وفى كل مراحل التاريخ التى حقق المسلمون فيها أمجادًا، وأسسوا حضارة، وسادوا الدنيا، ونشروا فى ربوعها الأمن والإيمان ـ كانت قوتهم فى صفاء التوحيد ووحدة الصف. .

وحين أصابهم الوهن، وتكالب عليهم الأعداء ـ كان سر ضعفهم وهوانهم هو اختلاف الكلمة وانحراف الفكر وتمزق الشمل. .

ولعل فى دراسة تاريخ الفرق الإسلامية ما يكشف كثيرًا من حقائق التاريخ الإسلامى، ويفسر جوانب غامضة فى حياة المسلمين، ويفتح مجالاً للنقد الذاتى نجدد به أمر هذه الأمة، ونتخطى به عقبات كثيرة، ونحقق به أملاً كبيرًا فى انتصار المسلمين ونشر الإسلام. .

فإن معرفة الأسباب التى طرأت على الأمة الإسلامية، والعلل التى تولدت فيها، والاتجاهات التى تسربت إليها، والتيارات التى تصارعت عليها. . كل ذلك يمنح المصلحين والمجددين القدرة على الاجتهاد، والأمانة فى النقد، والثراء فى الفكر، والاجتماع على الحق.

وهذه مقدمة فى دراسة الفرق الإسلامية نضعها بين يدى الباحثين، كى نحقق

قدرًا من ضوابط الفكر، ونقدم إطارًا للدراسة وخطة للبحث. .

وقد جاءت المقدمة ـ بتوفيق الله ـ فى أربعة مباحث هى:

**المبحث الأول: مفاهيم فى الافتراق:**

وقد آثرنا أن نبدأ بتحديد المفاهيم حول:

الفرقة ـ الطائفة ـ الحزب ـ الجماعة ـ الدعوة ـ المذهب ـ الطريقة. .

من خلال الوضع اللغوى والبيان القرآنى واصطلاح أهل العلم. .

وانتهينا إلى أن هذه المفاهيم كلها قد يجمعها الحق، وقد يلفها الباطل، وفى كلا الإطلاقين تعم العقائد والمعاملات والعبادات وكافة فنون الفكر. .

وتبقى نقطة تميز فى الإطلاق، وهى أن المذهب والدعوة والطريقة تطلق من حيث الفكر، أما الفرقة والطائفة والحزب والجماعة فتطلق من حيث الأفراد. .

ثم تكلمنا عن العلاقة بين الافتراق والاختلاف، وأكدنا أن كليهما مذموم بأجمعه، وأن منشأهما الهوى وحب الدنيا والكبرياء على الحق، وقد جاء النهى عنهما معًا فى مثل قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [آل عمران: ١٠٥].

بل إن الاختلاف هو أصل فساد البشرية وهلاك الأمم بنصوص شرعية صريحة.

وناقشنا العبارة القائلة: «اختلافهم رحمة»، وبينا أنه لا رحمة مع الاختلاف بنص قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ** ﴿١١٨﴾ **إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ**﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] وأن الفهم السوى هو أن اجتهادهم رحمة وليس اختلافهم.

فالاجتهاد يغاير الافتراق والاختلاف، حتى لو تعدد المجتهدون وتباينت آراؤهم وعقادئهم، لأن الاجتهاد مصحوب بحسن النية، ومستجمع لضوابط المعرفة، وملتزم بمناهج التفكير السليم وأصول الوحى الصحيح، وينأى عن عنف الكلمة والفعل. .

**المبحث الثانى: حديث افتراق الأمة:**

سقنا روايات الحديث الوارد بشأن افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، وقدمنا اجتهادات العلماء فى فهمه ثم عقبنا بما يلى:

١ ـ إن العلماء الذين اهتموا بحصر الفرق وبيان عددها ـ وقفوا عند زمانهم، ونسوا أن الليالى حبلى بالمذاهب والآراء، وأن الاجتهادات لا تتوقف.

فالصواب أن العدد لا مفهوم له، وليس مرادًا به الحصر، وهذا ما يجرى كثيرًا فى أخبار القرآن وقصصه، كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

فالأبحر سواء كانت سبعة أو سبعين أو سبعمائة لن تنفد كلمات الله.

٢ ـ إن أمة رسول الله ﷺ هى أمة الدعوة فى المقام الأول، ولا يراد بها أمة الإجابة إلا بقرائن.. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

فهذه الآية صريحة فى أن أمة كل رسول هى أمة دعوته..

فالمسلمون ـ رغم اختلافهم وتعدد اجتهاداتهم ـ ملة واحدة فى مواجهة ملل فاسدة، ومذهب واحد فى مواجهة مذاهب باطلة، وفرقة واحدة فى مواجهة فرق ضالة، وأمة واحدة فى مواجهة أمم شتى.. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

٣ـ إن الفرقة الواحدة الناجية إن فسرناها بالدين الواحد الذى هو الإسلام فهذا صحيح بلا ريب، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وإن فسرناها بفرقة معينة داخل فرق المسلمين يجب التسليم بكل آرائها فهذا محل نظر، لأنه لا عصمة بعد الأنبياء، وكل إنسان يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب الروضة الشريفة..

والميزان الصحيح هو أن ترد المسائل مسألة مسألة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٤ـ إن الحكم بأن الفرق كلها فى النار إلا واحدة ـ مرتبطة بتفسير الأمة..

فإن حملناها على أمة الدعوة فالمسلمون هم الناجون وما عداهم من الكافرين

فى جهنم خالدون.

وإن حملناها على أمة الإجابة فلا يعنى ذلك كفر باقى الفرق الإسلامية، بل المراد الدخول إلى حين، ولا يخلد مؤمن فى النار، ومن أصول أهل الحق إلحاق أهل البدع بأهل المعاصى، فلا يكفر أحد بذنب ما لم يستحله، ولا يكفر أحد ببدعة ما لم تخالف أصلاً معلومًا من الدين بالضرورة.

**المبحث الثالث: قضايا الافتراق:**

نحن نرى أن أسباب نشأة الفرق بين المسلمين لا تكاد تختلف عن أسباب نشأتها فى أى دين أو ملة أو جنس، فهى أسباب داخلية وخارجية، لكن جزئياتها وتفاصيل أحداثها هى التى تتخذ شكل المكان أو الزمان أو العقيدة.

ولهذا لم نقف عند الأسباب فى حد ذاتها، وإنما بحثنا عن القضايا التى تخص الأمة الإسلامية، ودار حولها الافتراق، وكانت سبعًا هى:

١ـ التوحيد والصفات الإلهية.

٢ـ القضاء والقدر والتكليف الإنسانى.

٣ـ الإمامة والخلافة ونظام الحكم.

٤ـ وعد الله ووعيده وحكم مرتكب الكبيرة.

٥ـ فقه العبادات والمعاملات.

٦ـ الفكر الوافد.

٧ـ التجديد الدينى.

فهذه قضايا الافتراق، ومحاور الحوار التى ينبغى أن يدور حولها الاجتهاد المعاصر..

وجميع الفرقاء مطالبون بتجاوز الجانب التاريخى منها، ومعايشة أحداث العصر، ومناقشة الدلائل والبينات..

**المبحث الرابع: قراءات فى كتب الفرق:**

قدمنا عرضًا لحركة التأليف فى الفرق الإسلامية دفاعًا أو هجومًا، حيث كان القلم أقوى من السيف، وكان الكتاب أبقى من الأئمة، وسرت دعوة كل الفرق

من مهدها، وتغلغلت فى كل جيل ومصر، وتوالى الأنصار والخصوم من كل صوب وحدب..

**وقد تنوعت دراسات الفرق، فكان منها:**

- دراسات بلسان الزعماء والدعاة..
- دراسات مستقلة وصفًا أو نقدًا..
- دراسات من خلال الأديان..
- دراسات من خلال تفسير القرآن المجيد..
- دراسات من خلال التاريخ العام للمسلمين..

وسقنا نماذج من مؤلفات هذه الجوانب كلها، حتى يمكن التعرف على مناهج المؤلفين والرجوع إليها والاستفادة منها عند دراسة الفرق..

والله نسأل أن يهدينا إلى الحق، ويشرح صدورنا له.. **﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾** [يونس: ٣٥، ٣٦].

مكة المكرمة فى { ٤/ ١٠/ ١٤١٧هـ ، ١١/ ٢/ ١٩٩٧ م }

أبو حذيفة
**أ. د. محمد سيد أحمد المسير**
أستاذ العقيدة والفلسفة
بجامعة الأزهر وجامعة أم القرى

# المبحث الأول
## مفاهيم فى الافتراق

- الفرقة.
- الطائفة.
- الحزب.
- الجماعة.
- الدعوة.
- الطريقة.
- المذهب.
- اصطلاح العلماء.
- بين الافتراق والاختلاف.
  - الشقاق.
  - النزاع.
  - البيان النبوى حول الاختلاف.
  - دفع شبهة «اختلافهم رحمة».

## مفاهيم فى الافتراق

جرى العرف على أن الاتجاهات المختلفة فى العقيدة تسمى فرقًا، وأن الاتجهات المختلفة فى الفقه تسمى مذاهب. .

لكن هذا العرف لا يقتضيه الوضع اللغوى، ولا يفرضه البيان القرآنى، وليس هو باصطلاح يجمع عليه أهل العلم. .

من أجل ذلك آثرنا أن نبدأ بتحديد المفاهيم حول:

الفرقة ـ الطائفة ـ الحزب ـ الجماعة ـ الدعوة ـ المذهب ـ الطريقة.

هل يجمعها معنى واحد مشترك يمكن من خلاله أن نسمى المعتزلة أو الخوارج مثلاً ـ فرقة وطائفة وحزبًا وجماعة وأصحاب دعوة ومذهب وطريقة؟

هذا ما نحاول التعرف عليه فى الوضع اللغوى والبيان القرآنى واصطلاح أهل العلم.

### ١ـ الفرقة

جاء فى المعجم الوسيط:

فَرَّق بين القوم: أحدث بينهم فُرقة.

وبين الأشياء: مَيَّز بعضها من بعض.

وفَرّق القاضى بين الزوجين: حكم بالفُرقة بينهما.

وفرّق الشىء: جعله فِرقًا.

وفرّق الأشياء: قسّمها.

تفارق القوم: فارق بعضهم بعضًا.

تفرّق الرجلان: ذهب كل منهما فى طريق.

تفاريق الشىء: أجزاؤه المتفرقة.

الفِراق: الفُرقة، وأكثر ما يكون بالأبدان[١].

الفِرْقة: الطائفة بين الناس.

الفَرقة: الافتراق.

الفريق: الطائفة من الناس، أكبر من الفِرْقة[٢].

* * *

وإذا تتبعنا البيان القرآنى وجدنا أن مشتقات الفرقة والفريق تطلق على جماعة من الناس قد يكونون على الحق وقد يكونون على الباطل..

ففرقة الحق كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وفريق الباطل كما فى قوله سبحانه: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

وجاءت الكلمة بالمعنيين فى آية واحدة كقوله جل شأنه: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وجاء الحديث المشهور فى مجال دراسة الفرق ليجعل المؤمنين الصادقين فرقة ناجية وسط فرق منحرفة فيقول:

«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة» وفى رواية: «كلها فى النار إلا واحدة، قيل: ومن هم؟ قال: الذين هم على ما أنا عليه وأصحابى».

* * *

(١) قال الله تعالى على لسان العبد الصالح: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨].

(٢) المعجم الوسيط ـ لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، قام بإخراجه الأساتذة/ إبراهيم مصطفى، وأحمد حسن الزيات، وحامد عبد القادر، ومحمد على النجار. وأشرف على طبعه الأستاذ عبد السلام هارون جـ٢، ص٦٩٢ ـ ط سنة ١٣٨١هـ، ١٩٦١م.

## ٢ـ الطائفة

جاء فى المعجم الوسيط:

الطائفة: الجماعة والفرْقة.

: وجماعة من الناس يجمعهم مذهب أو رأى يمتازون به.

: والجزء والقطعة، جمعه طوائف.

الطائفى: نسبة إلى الطائف أو الطائفة.

الطائفية: التعصب لطائفة معينة(١).

وإذا تصفحنا القرآن المجيد لاحظنا أن البيان القرآنى يستخدم لفظ الطائفة فى جماعة الحق وجماعة الباطل..

قال الله تعالى على لسان شعيب عليه السلام مخاطبًا أهل مدين: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

وقال جل شأنه فى بيان موقف اليهود من عيسى عليه السلام: ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

ووصف القرآن المنافقين بأنهم طائفة فقال: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء: ٨١].

وجاء الحديث الشريف يستخدم لفظ الطائفة للدلالة على جماعة من المؤمنين يتمسكون بالحق دائمًا مهما كانت العوائق، فيقول عليه الصلاة والسلام: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون» رواه البخارى.

* * *

(١) المعجم الوسيط جـ ٢، ص٥٧٧.

## ٣ـ الحزب

جاء فى المعجم الوسيط :

حَزَبَ الأمرُ حَزْبًا : اشتد.

حازب فلانًا : نصره وعاضده.

حَزّبهم : جعلهم أحزابًا.

تحازب القوم وتحزبوا: صاروا أحزابًا.

تحازبوا عليه وتحزبوا: تعاونوا عليه.

الحِزْب : الأرض الغليظة الشديدة، والجماعة فيها قوة وصلابة، وكل قوم تشاكلت أهواؤهم وأعمالهم.

حِزْب الرجل : أعوانه ونصيبه وما يعتاده من صلاة وقراءة ودعاء[1].

* * *

وإذا انتقلنا إلى القرآن المجيد وجدناه يقسم الناس إلى حزبين: حزب الله وحزب الشيطان.

قال الله تعالى:

﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المجادلة: ١٩].

﴿ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ويطلق القرآن على الذين تنازعوا فى شخصية المسيح عليه السلام أنهم أحزاب، فيقول: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ

(١) المعجم الوسيط جـ١، ص١٦٩ ط سنة ١٣٨٠هـ، ١٩٦٠م.

بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٥ - ٣٧].

ويجعل القرآن لقاء المشركين والمنافقين واليهود فى غزوة الخندق أحزابًا اجتمعت على الباطل، وأرادت وأد الإسلام والمسلمين، فرد الله كيدهم فى نحورهم، وأعلى كلمة الإسلام، قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وسميت السورة التى تحدثت عن غزوة الخندق بسورة الأحزاب، وجمع القرآن بين مكذبى الرسل على مدار التاريخ الإنسانى وجعلهم أحزابًا فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ﴾ [ص: ١٢، ١٣].

وساق القرآن النكال الذى وقع بهؤلاء المكذبين عبرة للآخرين، وسماه يوم الأحزاب، فهم قوم كذبوا الرسل، فحاقت عليهم اللعنة وحل بهم العذاب، وهو متكرر متى تكرر التكذيب، ومتعاقب على تعاقب الكفر.. فقال الله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٠، ٣١].

واستخدم القرآن كلمة الأحزاب عنوانًا لكل المخالفين لملة الإسلام، وتوعدهم بسوء العاقبة وشؤم المصير. فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧].

* * *

## ٤ـ الجماعة

من معانى لفظ «الجماعة» فى اللغة: العدد الكثير من الناس والشجر والنبات، وطائفة من الناس يجمعها غرض واحد..

وقد شملت الجماعة فى البيان القرآنى جماعة الخير وجماعة الشر، ويمكن أن نقرأ قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢].

فالجمعان هنا هى جماعة موسى وجماعة فرعون..

وأطلق القرآن يوم الجمعين على يومى بدر وأحد فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

فاليوم هنا يوم بدر والجمعان جماعة المسلمين وجماعة المشركين..

وقال جل شأنه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧] واليوم فى هذه الآية يوم أحد..

* * *

## ٥ـ الدعوة

من معانى لفظ الدعوة فى اللغة: الدعاء، والالتجاء، والإعلان، والإعلام، والمجاهرة برأى أو فكر أو معتقد. .

والدعوة فى البيان القرآنى لا تختلف عن الألفاظ السابقة فى اشتمالها على دعوة الحق ودعوة الباطل، فهى تستخدم لكل ما يدعوه الإنسان أو يدعو له. .

قال الله تعالى: ﴿ **يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ** ﴾ [الحج: ١٢، ١٣].

فالمشركون يدعون أصنامًا، لا تملك لنفسها ولا لغيرها شيئًا، وهى أعجز من أن تسمع أو تجيب. .

وقال الله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿ **وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ** ﴾ [غافر: ٤١، ٤٢].

فهناك دعوة إلى النجاة ودعوة إلى النار، أو بتعبير آخر: هناك دعوة الحق أو الدعوة إلى الله، وهناك دعوة الشيطان أو الدعوة إلى الشرك. وتأكيدًا لهذا المعنى نقرأ قول الله جل شأنه: ﴿ **ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ** ﴾ [غافر: ١٢].

فالدعوة بمعنى الإعلام والإعلان عن مبادئ وأفكار ومعتقدات تتسع فى الإطلاق لتعم الحق والباطل، وتشمل الخير والشر.

* * *

## ٦ـ الطريقة

إذا تتبعنا لفظ «الطريقة» فى القرآن المجيد ـ وهو كتاب العربية الأكبر وقاموسها الأعظم ـ وجدنا ما يلى:

١ـ قال الله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ [طه: ٦٣].

فالطريقة هنا بمعنى السنة والشريعة والقانون، لقد ظن فرعون وقومه أن موسى وأخاه هارون عليهما السلام جاءا لينزعا عنهم سلطانهم، ويغيرا نظام حكمهم الذى يعدونه مثاليًا..

٢ـ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢ ـ ١٠٤].

فالطريقة هنا بمعنى الرأى والفكر، فعندما يخرج الناس من قبورهم ويساقون إلى المحشر لا يدرون كم من الوقت مضى على موتهم، وأكثرهم ذكاء وأحدهم فكرًا وأعمقهم رأيًا يتوهم أن الناس لبثوا فى قبورهم يومًا واحدًا..

٣ـ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧].

فالمراد بالطرائق السموات السبع، وفى توجيه ذلك التعبير ساق الإمام الرازى ما يلى:

وإنما قيل لها طرائق لتطارقها بمعنى كون بعضها فوق بعض، يقال طارق الرجل نعليه إذا أطبق نعلاً على نعل، وطارق بين ثوبين إذا لبس ثوبًا فوق ثوب.

هذا قول الخليل والزجاج والفراء، قال الزجاج: هو كقوله ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣].

وقال على بن عيسى: سميت بذلك لأنها طرائق للملائكة فى العروج والهبوط والطيران.

وقال آخرون: لأنها طرائق الكواكب فيها مسيرها[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١].

والمراد بالطرائق القدد - الفرقة المختلفة، سواء كان مسلمين أو كافرين، فالجن كالإنس مختلفو الأديان، متفرقو المذاهب، متعددو الاتجهات.

٥- قال الله تعالى: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

والمراد بالطريقة هنا سنة الهدى وملة الحق وشريعة الله.

وبهذا يتبين أن الطريقة تعم الحق والباطل، وتشمل المؤمن والكافر، وتطلق على كل اتجاه صائب أو منحرف..

***

(١) التفسير الكبير جـ ٢٣، ص٨٨ ط دار الفكر.

## ٧- المذهب

جاء فى المعجم الوسيط :

ذهب إلى قول فلان : أخذ به .

وذهب مذهب فلان : قصد قصده وطريقته .

وذهب فى الدين مذهبًا : رأى فيه رأيًا أو أحدث فيه بدعة[١] .

وعندما تعقبت هذا اللفظ فى المصحف الشريف لم أر مشتقات للفظ (ذهب) جاءت بمعنى الرأى والطريقة ، وإنما جاءت بالمعانى المشهورة المعروفة[٢] كقوله تعالى :

- ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٧] .
- ﴿ ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ [يوسف: ١٧] .
- ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٣] .
- ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ [النازعات: ١٧] .

ونخلص - من كل ما تقدم - إلى أن الفرق والمذاهب والأحزاب والجماعات والدعوات والطوائف كلها قد يجمعها الحق ، ويوحد بينها الرشد ، ويسوقها الإخلاص ، ويحدوها الإصلاح ، وتنشد الزلفى إلى الله . .

وقد يلفها الباطل ، ويعصف بها الغرور ، وتسعى إلى الإفساد ، ويزين لها الشيطان قبح الفعال والآراء والمعتقدات . .

وفى كلا الإطلاقين تعم هذه المفاهيم العقائد والعبادات والمعاملات وكافة فنون الفكر . .

* * *

(١) المعجم الوسيط جـ١ ، ص٣١٦ .

(٢) وهى مرّ ، ومضى ، وزال ، وانمحى .

## اصطلاح العلماء

سالت أقلام العلماء قديمًا وحديثًا باستخدام هذه الألفاظ لكل معانى الخير والشر أو الحق والباطل، وعلى سبيل المثال: فالإمام البغدادى المتوفى عام ٤٢٩هـ قال: «وقد علم كل ذى عقل من أصحاب المقالات المنسوبة إلى الإسلام أن النبى ﷺ لم يرد بالفرق المذمومة التى هى من أهل النار ـ فرق الذين اختلفوا فى فروع الفقه. . . »[١].

فقد أطلق على المذاهب الفقهية فرقًا. .

والإمام الشهرستانى المتوفى عام ٥٤٨هـ قال: فإذا وجدنا انفراد واحد من أئمة الأمة بمقالة من هذه القواعد[٢]، عددنا مقالته مذهبًا وجماعته فرقة.

وإن وجدنا واحدًا انفرد بمسألة فلا نجعل مقالته مذهبًا وجماعته فرقة، بل نجعله مندرجًا تحت واحد ممن وافق سواها مقالته، ورددنا باقى مقالاته إلى الفروع التى لا تعد مذهبًا مفردًا. . . »[٣].

وعلى هذا فالمقالات المتفردة كلها مذاهب وأصحابها جميعًا فرق. .

ولما تكلم الشهرستانى عن فرق المسلمين جعل ختام بحثه بعنوان:

«أهل الفروع المختلفون فى الأحكام الشرعية والمسائل الاجتهادية» وقسمهم إلى صنفين لا ثالث لهما:

ـ أصحاب الحديث ـ أصحاب الرأى.

فأصحاب الحديث هم أهل الحجاز، أصحاب مالك بن أنس، وأصحاب محمد ابن إدريس الشافعى، وأصحاب سفيان الثورى، وأصحاب أحمد بن حنبل، وأصحاب داود بن على بن حجر الأصفهانى.

(١) الفرق بين الفرق ـ تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ص١١، ط١ مكتبة صبيح وأولاده.

(٢) يقصد قاعدة الصفات والتوحيد، وقاعدة القدر والعدل، وقاعدة الوعد والوعيد والأسماء والأحكام، وقاعدة السمع والعقل والرسالة والإمامة، تلك القواعد التى بنى عليها تعديد الفرق.

(٣) الملل والنحل ـ تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل ص١٣، ط دار الفكر ـ بيروت.

وكانت عنايتهم بتحصيل الأحاديث ونقل الأخبار، وبناء الأحكام عليها، ولا يرجعون إلى القياس الجلى والخفى ما وجدوا خبرًا أو أثرًا.

وأصحاب الرأى هم أهل العراق، أصحاب أبى حنيفة النعمان بن ثابت، وكانت عنايتهم بتحصيل وجه القياس والمعنى المستنبط من الأحكام وبناء الحوادث عليها، وربما يقدمون القياس الجلى على آحاد الأخبار.

ثم قال الشهرستانى فى ختام الفصل:

اعلم أن بين الفريقين اختلافات كثيرة فى الفروع، ولهم فيها تصانيف، وعليها مناظرات، وقد بلغت النهاية فى مناهج الظنون، حتى كأنهم قد أشرفوا على القطع واليقين، وليس يلزم من ذلك تكفير ولا تضليل، بل كل مجتهد مصيب..»[(١)].

فاختلافات الفقه هى من الفرق والمذاهب تبعًا للوضع اللغوى والبيان القرآنى..

وفى العصر الحديث ألف الشيخ محمد أبو زهرة كتابًا بعنوان «تاريخ المذاهب الإسلامية» وقال:

«إن المسلمين قد اختلفوا إلى مذاهب فى الاعتقاد والسياسة والفقه»[(٢)].

فقد أطلق الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ لفظ المذاهب على جميع الاختلافات العقدية والسياسية والفقهية.. وهو ما سبق أن قررناه.

لكن تبقى نقطة تميز فى الإطلاق وهى أن المذهب والطريقة والدعوة يتصل بالفكر فقط أما الفرقة والطائفة والحزب والجماعة فتتصل بالأفراد، بمعنى أن الفكر من حيث الاعتقاد فهو مذهب.. ومن حيث الالتزام به سلوكيًا فهو طريقة.. ومن حيث نشره والإعلان عنه فهو دعوة..

وإن الأفراد الذين يعتنقون هذه الأفكار هم:

ـ فرقة فارقوا الآخرين وذهبوا فى طريق أخرى افترقوا بها.

ـ وطائفة يجمعهم مذهب ولهم رأى يتمايزون به.

ـ وحزب تشاكلت آراؤهم وأعمالهم، ويتساندون فى نصرتها.

---

(١) الملل والنحل ص ٢٠٨.

(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية ص١٠ ط دار الفكر العربى بالقاهرة.

- وجماعة اجتمعوا على رأى وفكر واحد . .

ومع كل ما قدمناه فإن العرف جرى باستخدام المذهب فى الفقه والفلسفة، والفرقة فى الدين والعقيدة، والطريقة فى التصوف . . فيقال:

- المذاهب الفقهية .
- المذاهب الفلسفية .
- الفرق الكلامية أو الدينية أو العقدية .
- الطرق الصوفية .

* * *

## بين الافتراق والاختلاف

هناك اتجاه لدى بعض العلماء يجعل دلالة الافتراق تغاير دلالة الاختلاف، ويرى أن الافتراق مذموم وأن الاختلاف لا بأس به.

وهذا ليس مسلمًا لأن الوضع العربى لا يسانده، والبيان القرآنى لا يؤيده.. فاختلاف الشيئين تضادهما، وافتراق الشيئين تمايزهما وتغايرهما، فكل اختلاف هو تغاير، وكل افتراق هو تضاد ـ فالافتراق والاختلاف يلتقيان لغة، ويمدحان أو يذمان على سواء..

فالاختلاف فى البيان القرآنى أصل الفساد، وهو الذى خرج بالبشرية عن فطرتها الأولى فى الوحدة والتوحيد، وعلى إثره بعث الله تعالى الأنبياء والرسل ليعيدوا الناس إلى صفاء الفطرة، ويذكروهم بآيات الأنفس والآفاق، ويبينوا لهم معالم العروة الوثقى وضرورة الوحدة وحتمية التوحيد..

قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣].

والاختلاف هو الذى أصاب اليهود والنصارى فدفع بهم إلى البغى والفساد، والتحريف والتبديل، والافتراء على الله ورسله.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠].

وقال جل شأنه فى حق النصارى: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم:٣٧] فالاختلاف مذمة ومنقصة تلحق الإنسان تجعله فى سخط الله وعقابه قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٨، ١١٩].

فالخلاف والاختلاف كله مذموم، ولا يتباين عن الفرقة والافتراق، فكلاهما تمزيق للبشرية، وإعاقة لمسيرتها، وانحراف عن منهج الله.. ذلكم المنهج الذى يجمع بين التوحيد فى العقيدة والوحدة فى المجتمع، وقد حذر القرآن من الخروج على هذا المنهج الإلهى فقال: ﴿ **لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور: ٦٣].

وهذه الآية فى مفهومها الذى ينهى عن المخالفة عن أمر الله ورسوله، تلتقى مع آية أخرى فى مفهومها الذى ينهى عن الافتراق فى الدين، وهى قوله تعالى: ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فالتفرق عن سبيل الله هو بعينه المخالفة عن أمر الله.. ولهذا جاء النهى صريحًا عن الافتراق والاختلاف فى آية واحدة هى قوله تعالى: ﴿ **وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

ومنشأ الخلاف والاختلاف أو الفرقة والافتراق هو الهوى وحب الدنيا وإيثار الغلبة والكبرياء على الحق.

وما نشأ عن الهوى مذموم أيًا كان مداه.

* * *

## الشقاق

وقد عبر القرآن عن الافتراق والاختلاف بتعبير آخر هو الشقاق، فنهى عنه أشد النهى سواء كان فى العقيدة أو الأخلاق..

فالإعراض عن دين الإسلام هو الشقاق الأكبر، قال تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

والتولى هو الإعراض بلا حجة، والإدبار بلا وعى، والاختلاف بلا فكر..

والتنوين والتنكير فى قوله تعالى: ﴿فِي شِقَاقٍ﴾ للتعظيم والتهويل..

وكل انحراف فى العقيدة وتبديل لما أنزل الله وخروج عن وحى الله هو شقاق أكبر.. أو شقاق بعيد.. قال تعالى فى حق أهل الكتاب: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

وقال تعالى فى حق أولياء الشيطان الذين يصدون عن سبيل الله: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٣].

وجزاء هذا الشقاق الأكبر هو العذاب المهين، والعقاب الأليم، والمصير الأسود فى الدنيا والآخرة..

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

والآية تأكيد قوى لما سبق أن قلناه من أن الاختلاف والشقاق مرده الهوى، وعدم الاستجابة لبينات الهدى، والكبرياء على الحق وأهله.

وعندما حمل أهل الشقاق السلاح فى مواجهة المؤمنين كانت الدائرة عليهم ورد الله كيدهم فى نحورهم، وتعقبتهم أيدى المؤمنين تقتيلاً وتشريدًا جزاء وفاقًا..

ففى غزوة بدر الكبرى جاءت عصبة الشرك بجهلها وجهالاتها وكبريائها تقطع الفيافى لتقضى على الإسلام والمسلمين فنزل قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى

الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال: ١٢ ـ ١٤].

وفي غزوة بني النضير أذل الله اليهود لخيانتهم العهد ونقضهم الميثاق ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٢ ـ ٤].

وقد ذكر القرآن الشقاق كمرحلة خطيرة في تردي العلاقات الزوجية وجعل لها حلاً خاصًا فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥].

* * *

## النزاع

ويلتقى مع الافتراق والاختلاف والشقاق فى المعنى لفظ النزاع، وقد ربطه القرآن بالفشل بدءًا ونهاية، فالفشل يدعو إلى النزاع، والنزاع يؤدى إلى الفشل.

وعند الحديث عن غزوة أحد جاء البيان القرآنى فوسط النزاع بين الفشل والمعصية فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ...﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وفى الحديث عن غزوة بدر جاء البيان القرآنى ليرتب الفشل على النزاع، ويدعو المسلمين إلى الالتزام بطاعة الله ورسوله والثبات فى مواطن البأساء، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥، ٤٦].

وهذه الأوامر الإلهية لتنظيم ساحة المعركة هى قانون النصر الإسلامى فى كل زمان ومكان.

وجاء النزاع فى البيان القرآنى مقترنًا بسحرة فرعون، عندما اجتمعوا يوم الزينة استكبارًا فى الأرض واستعلاء على الحق..

وبدأ اللقاء بكلمة موجزة من نبى الله موسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١].

وعلى إثر هذا التنبيه القوى وتلك النصيحة القاطعة سرى الخلاف بين سحرة فرعون وانقسموا على أنفسهم لما يعلمونه من ضعف موقفهم وقوة حجة موسى عليه السلام، ومع ذلك أصروا على المنازلة، وغلبت عليهم حمية الجاهلية، قال الله تعالى: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا

كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٢ - ٦٤].

إن تنازعهم حقيقة نفسية وعقلية أرادوا إخفاءها، وخدعوا أنفسهم بمقولات فارغة عن الملك والسطوة والاستعلاء، وتظاهروا بوحدة الصف، وما هى إلا لحظات انقشع فيها الغيم وزال الزيف وتجلت الحقيقة، وسطع نور اليقين ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠].

* * *

## البيان النبوى حول الاختلاف

هذا وقد جاءت أحاديث رسول الله ﷺ على هذا المنهج، تنهى عن الاختلاف، وتحذر المسلمين من التنازع والشقاق، وتدعوهم إلى وحدة الصف والكلمة.

ففى الحديث المتفق عليه، عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «دعونى ما تركتكم، إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

ففى هذا الحديث بيان أن هلاك الأمم مرتبط بالاختلاف، وأن شقاء الشعوب مرهون بالتنازع والجدل العقيم.

وعندما حان وقت وداع الرسول ﷺ لأمته، وعظهم موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، واستشعر الصحابة أنها موعظة مودع، فقالوا: يا رسول الله أوصنا، قال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، وأنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة» رواه أبو داود والترمذى.

ومما لا شك فيه أن سنة الرسول ومنهجه هو الوحى، وأن سنة الراشدين فى كل زمان ومكان - ومنهجهم هو الاجتهاد على ضوء الوحى.

فوصية رسول الله ﷺ هى التقاء الوحى الصحيح والعقل الراشد.. ولقد علم الرسول ﷺ أصحابه وحدة الصف فى الصلاة حتى تكون إيذانًا بوحدة الصف فى المجتمع، وكان يباشر ذلك بنفسه..

فعن أبى مسعود رضى الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا فى الصلاة ويقول: استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم..» رواه مسلم.

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لتسون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم»[1] متفق عليه.

---

(١) كلامنا فى الاختلاف الفكرى فى المفهوم الشرعى، أما الاختلاف فى الألوان واللغات والأجناس =

وبعد ـ فإن الخروج من مأزق النزاع لا يكون إلا بالالتزام بكتاب الله والوفاء لسنة رسوله والاعتصام بمنهج الله العقلى والنقلى معًا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩].

فنصوص الشرع ومناهج الاستدلال هى الرد إلى الله ورسوله، فالشرع لا يفهم إلا فى ضوء العقل، والعقل لا يسير إلا فى نور الشرع.. وهذا هو الاجتهاد أو الاستنباط المشار إليه فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

والاجتهاد يغاير الافتراق والاختلاف والشقاق والنزاع، حتى ولو تعدد المجتهدون وتباينت آراؤهم وعقائدهم لأن الاجتهاد مصحوب بحسن النية، ومستجمع لضوابط المعرفة، وملتزم بمناهج التفكير السوى وأصول الوحى المنزل، وينأى عن عنف الكلمة والفعل، ويبرأ من السخرية بالآخرين والاستعلاء عليهم، ويعترف لكل مجتهد بحقه وحريته..

والذين يتحدثون عن الاختلاف المحمود، ويقصدون به الاجتهاد يلزمهم أن يقولوا بالافتراق المحمود أيضًا، فكل من الافتراق والاختلاف يتحد فى اللغة، وقد جاء إطلاق لفظ الفرقية على جماعة الحق فى نصوص شرعية، سبق بيانها..

* * *

= فهو آية من آيات الله وأثر من آثار الإبداع الإلهى قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢] وأما الاختلاف الفكرى فى مفهوم اللغة فهو التضاد سواء كان ناشئًا عن اجتهاد أو ناشئًا عن هوى.

## دفع شبهة

انتهينا - فيما سبق إلى أن الاختلاف شر كله، ومذموم بأجمعه فكيف ينطبق هذا على المذاهب الفقهية، فهى متعددة، ويردد كثير من العلماء أن اختلاف الفقهاء رحمة، وتساق آثار تحبذ الاختلاف وتثنى عليه، فيروى أن عمر بن عبد العزيز قال: «ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا، لأنه لو كان قولاً واحدًا كان الناس فى ضيق، وإنهم أئمة يقتدى بهم، فلو أخذ أحد بقول رجل منهم كان فى سعة».

وتعقيبنا على ذلك ما يلى:

١- إن تعدد المذاهب الفقهية ليس مقصودًا شرعيًا ولا هدفًا دينيًا، وإنما جاء نتيجة اجتهاد وجهد علمى فذ، وليس هو من اختلاف الهوى أو محاولة الشقاق والافتراق والتمرد على سبيل المؤمنين..

٢- إن تعدد المذاهب الفقهية فيه الصواب والخطأ، وينطوى على ما يقبل وما يرفض، ولا يتحتم شرعًا قبول رأى بعينه، ولا الركون إلى مذهب خاص..

وقد وصلت هذه المذاهب فى اجتهادها إلى التناقض فى قضايا كثيرة تشمل العبادات والمعاملات، فما يحله مذهب قد يحرمه مذهب آخر، وما يحكم بصحته إمام قد يحكم بفساده إمام آخر، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى.

٣- إن الآثار المروية فى قبول الاختلاف والثناء عليه يجب أن تفهم بمعنى الاجتهاد والتوسع فيه والحث عليه..

والصحابة - رضى الله عنهم - لم يختلفوا حسدًا وبغيًا فى أحكام الشريعة التى نقلوها أو حكموا فيها، وإنما أخلصوا دينهم لله، وتحروا مواطن الحق وبذلوا طاقتهم للوصول إلى ما يرضى الله ورسوله.. فالصواب أن يقال: اجتهادهم رحمة وليس اختلافهم رحمة..

٤- ناقش الإمام الشاطبى هذه النقطة بتفصيل رائع وبيان شاف فى كتابه «الموافقات» تحت عنوان: «الشريعة كلها ترجع إلى قول واحد فى فروعها وإن كثر

الخلاف، كما أنها فى أصولها كذلك، ولا يصلح فيها غير ذلك».

وانتهى إلى ما يأتى:

وأما قول من قال: إن اختلافهم رحمة وسعة، فقد روى ابن وهب عن مالك أنه قال: ليس فى اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ سعة، وإنما الحق واحد، قيل له: فمن يقول: إن كل مجتهد مصيب؟ فقال: هذا لا يكون قولان مختلفان صوابين..

ولو سلم فيحتمل أن يكون من جهة فتح باب الاجتهاد، وأن مسائل الاجتهاد قد جعل الله فيها سعة بتوسعة مجال الاجتهاد، لا غير ذلك.

قال القاضى إسماعيل: إنما التوسعة فى اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ توسعة فى اجتهاد الرأى، فأما أن يكون توسعة أن يقول الإنسان بقول واحد منهم من غير أن يكون الحق عنده فيه فلا، ولكن اختلافهم يدل على أنهم اجتهدوا فاختلفوا.

قال ابن عبد البر: كلام إسماعيل هذا حسن جدًا..

وأيضًا فإن قول من قال: إن اختلافهم رحمة يوافق ما تقدم (أى بسبب فتح باب الاجتهاد)، وذلك لأنه قد ثبت أن الشريعة لا اختلاف فيها[1]، وإنما جاءت حاكمة بين المختلفين فيها وفى غيرها من متعلقات الدين[2].

فكان ذلك عندهم عامًا فى الأصول والفروع، حسبما اقتضته الظواهر المتضافرة والأدلة القاطعة[3].

فلما جاءتهم مواضع الاشتباه وكلوا ما لم يتعلق به عمل إلى عالمه، على مقتضى قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: ٧]. ولم يكن لهم بد من النظر فى متعلقات الأعمال، لأن الشريعة قد كملت، فلا يمكن خلو الوقائع عن أحكام الشريعة فتحروا أقرب الوجوه عندهم إلى أنه المقصود الشرعى..

---

(١) لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

(٢) لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

(٣) ذكر الشاطبى خمسة أدلة على أن الشريعة كلها ترجع إلى أصل واحد فى فروعها وأصولها ص٨٥ جـ٤.

والنظر والأنظار تختلف، فوقع الاختلاف من هنا، لا من جهة أنه من مقصود الشرع..

فلو فرض أن الصحابة لم ينظروا فى هذه المشتبهات الفرعية ولم يتكلموا فيها ـ وهم القدوة فى فهم الشريعة والجرى على مقاصدها ـ لم يكن لمن بعدهم أن يفتح ذلك الباب، للأدلة الدالة على ذم الاختلاف، وأن الشريعة لا اختلاف فيها..

ومواضع الاشتباه مظان الاختلاف فى إصابة الحق فيها، فكان المجال يضيق على مَنْ بعد الصحابة.

فلما اجتهدوا ونشأ من اجتهادهم فى تحرى الصواب ـ الاختلاف، سهل على مَنْ بعدهم سلوك الطريق.

فلذلك ـ والله أعلم ـ قال عمر بن عبد العزيز: ما يسرنى أن لى باختلافهم حمر النعم.. ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا..

وخلص الإمام الشاطبى إلى هذه النتيجة: فثبت أنه لا اختلاف فى أصل الشرعية، ولا هى موضوعة على وجود الخلاف فيها أصلاً يرجع إليه، مقصودًا من الشارع، بل ذلك الخلاف راجع إلى أنظار المكلفين وإلى ما يتعلق بهم من الابتلاء، وصح أن نفى الاختلاف فى الشريعة، وذمه على الإطلاق والعموم فى أصولها وفروعها..[1].

* * *

(١) الموافقات فى أصول الشريعة لأبى إسحاق الشاطبى المتوفى عام ٧٩٠هـ، حققه الشيخ عبد الله دراز وآخرون، جـ٤ ص٩٣ ط دار الكتب العلمية ـ لبنان.

# المبحث الثانى

## حديث افتراق الأمة

- نصوص الحديث وآراء العلماء:
  - الإمام البغدادى.
  - الإمام الشهرستانى.
  - الإمام ابن الجوزى.
  - الإمام الشاطبى.
  - الإمام جلال الدين الدوانى.
- تعقيب وتعليق:
  - خطأ الحصر.
  - المراد بالأمة.
  - مفهوم الفرقة الناجية.
  - المراد من قوله: «كلها فى النار».
  - رواية ورأى.



## نصوص الحديث وآراء العلماء

يتردد كثيراً حديث مشهور على ألسنة العلماء حول الفرق الإسلامية، ويتخذه البعض ذريعة للتكفير.

وقد حظى هذا الحديث بأبحاث كثيرة واجتهادات متعددة وذكره علماء الفرق فى مقدمة كتبهم، ونسوق هنا نماذج لأقوال الباحثين:

### ١ـ الإمام البغدادى (ت ٤٢٩ هـ)

بدأ الإمام عبد القاهر البغدادى كتابه «الفرق بين الفرق» ببيان الحديث المأثور فى افتراق الأمة، وساق مجموعة روايات منها:

* رواية أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة. وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة».

* رواية عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل، تفرق بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين ملة وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة، تزيد عليهم ملة، كلهم فى النار إلا ملة واحدة، قالوا: يا رسول الله من الملة الواحدة التى تنقلب[1]؟ قال: ما أنا عليه وأصحابى.

* رواية أنس عن النبى ﷺ قال: إن بنى إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة وإن أمتى ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة».

ثم علق الإمام البغدادى قائلاً[2]:

وقد علم كل ذى عقل من أصحاب المقالات المنسوبة إلى الإسلام أن النبى عليه

(١) أى تنقلب راجعة عن النار.

(٢) الفرق بين الفرق ص٦ ط دار الآفاق الجديدة ـ بيروت.

السلام لم يرد بالفرق المذمومة التى عدها من أهل النار ـ فرق الفقهاء الذين اختلفوا فى فروع الفقه مع اتفاقهم على أصول الدين، لأن المسلمين فيما اختلفوا فيه من فروع الحلال والحرام على قولين:

**أحدهما:** قول من يرى تصويب المجتهدين كلهم فى فروع الفقه، وفرق الفقه كلها عندهم مصيبون.

**والثاني:** قول من يرى فى كل فرع تصويب واحد من المختلفين فيه وتخطئة الباقين من غير تضليل منه للمخطئ فيه.

وإنما فصل النبى عليه السلام بذكر الفرق المذمومة ـ فرق أصحاب الأهواء الضالة الذين خالفوا الفرقة الناجية فى أبواب العدل والتوحيد أو فى الوعد والوعيد أو فى بابى القدر والاستطاعة أو فى تقدير الخير والشر، أو فى باب الهداية والضلالة، أو فى باب الإرادة والمشيئة أو فى باب الرؤية والإدراك، أو فى باب صفات الله عز وجل وأسمائه وأوصافه، أو فى باب من أبواب التعديل والتجويز أو فى باب من أبواب النبوة وشروطها ونحوها من الأبواب التى اتفق عليها أهل السنة والجماعة من فريقى الرأى والحديث على أصل واحد خالفهم فيها أهل الأهواء الضالة من القدرية والخوارج والروافض والنجارية والجهمية والمجسمة والمشبهة ومن جرى مجراهم من فرق الضلال.

ثم عد الإمام البغدادى الفرق الضالة وحاول الالتزام بالعدد الوارد، وحين أحس بتكاثر عددها عن اثنتين وسبعين فرقة أخذ يخرج بعض الفرق عن دائرة الإسلام مثل الباطنية فقال[1]:

وليست الباطنية من فرق ملة الإسلام بل هى من فرق المجوس على ما نبينه بعد هذا، وظهروا فى أيام محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر بخراسان..

وحين تحدث عن الروافض قال[2]:

فأما غلاتهم الذين قالوا بإلهية الأئمة وأباحوا محرمات الشريعة وأسقطوا وجوب فرائض الشريعة كالبيانية والمغيرية والجناحية والمنصورية والخطابية والحلولية

---

(١) المرجع السابق ص١٦.

(٢) المرجع السابق ص١٧.

ومن جرى مجراهم فما هم من فرق الإسلام وإن كانوا منتسبين إليه.

وحين تحدث عن الخوارج قال[١]:

واليزيدية منهم أتباع يزيد بن أبى أنيس ليست من فرق الإسلام لقولها بأن شريعة الإسلام تنسخ فى آخر الزمن بنبى يبعث من العجم، وكذلك من جملة العجاردة فرقة يقال لها الميمونية ليست من فرق الإسلام لأنها أباحت نكاح بنات البنات وبنات البنين كما أباحته المجوس..

وما زال إحساسه بكثرة الفرق مسيطرًا عليه حتى إنه دمج بعض الفرق فى بعض فقال[٢]:

وأما البخارية فإنها اليوم بالرى أكثر من عشر فرق، ومرجعها فى الأصل إلى ثلاث فرق برغونية وزعفرانية ومستدركة.

* * *

(١) المرجع السابق ص١٨.
(٢) المرجع السابق ص١٩.

## ٢ـ الإمام الشهرستانى (ت ٥٤٨هـ)

ألف الإمام أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى كتابه «الملل والنحل» وذكر فى مقدمته الأولى عن بيان تقسيم أهل العالم ما يتعلق بالفرق فقال[1]:

فأهل الأهواء ليست تنضبط مقالاتهم فى عدد معلوم، وأهل الديانات قد انحصرت مذاهبهم بحكم الخبر الوارد فيها، فافترقت المجوس على سبعين فرقة، واليهود على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة، والمسلمون على ثلاث وسبعين فرقة، والناجية أبدًا من الفرق واحدة، إذ الحق فى القضيتين المتقابلتين فى واحدة.

ولا يجوز أن يكون قضيتان متناقضتان متقابلتان على شرائع التقابل إلا وأن تقتسما الصدق والكذب، فيكون الحق فى إحداهما دون الأخرى. ومن المحال الحكم على المتخاصمين المتضادين فى أصول المعقولات بأنهما محقان صادقان.

وإذا كان الحق فى كل مسألة عقلية واحدًا، فالحق فى جميع المسائل يجب أن يكون مع فرقة واحدة..

وإنما عرفنا هذا بالسمع، وعنه أخبر التنزيل فى قوله عز وجل: ﴿**وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨١]، وأخبر النبى عليه الصلاة والسلام «ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة والباقون هلكى، قيل ومن الناجية؟ قال: أهل السنة والجماعة، قيل: وما السنة والجماعة؟ قال: ما أنا عليه اليوم وأصحابى»..

وقال عليه الصلاة والسلام «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة».

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تجتمع أمتى على ضلالة».

وأرجع الإمام الشهرستانى أصول الفرق إلى أربع هى:

القدرية ـ الصفاتية ـ الخوارج ـ الشيعة.

---

(١) الملل والنحل جـ١، ص١٣ ـ تحقيق محمد سيد كيلانى، ط الحلبى.

وجعل كل أصل ينشعب إلى فرق، وأوصلها إلى ثلاث وسبعين فرقة، ثم قال[١]:

وقد نجزت الفرق الإسلامية وما بقيت إلا فرق الباطنية، وقد أوردهم أصحاب التصانيف فى كتب المقالات إما خارجة عن الفرق وإما داخلة فيها، وبالجملة هم قوم يخالفون الاثنتين والسبعين فرقة.

*** 

(١) الملل والنحل ص١٩٠.

## ٣ـ الإمام ابن الجوزى (ت ٥٩٧هـ)

ألف الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى كتابه «تلبيس إبليس»[١]، وبدأه بباب الأمر بلزوم السنة والجماعة، وذكر بعض الأحاديث فى ذلك منها أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خطب بالجابية فقال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال: من أراد منكم بحبوبة الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد».

ثم ساق الإمام ابن الجوزى مجموعة روايات حول افتراق الأمة منها:

رواية ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ليأتين على أمتى كما أتى على بنى إسرائيل، حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان فى أمتى من يصنع ذلك، وإن بنى إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة، وتفرقت أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم فى النار إلا ملة واحدة، قالوا: من هى يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابى» قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه.

رواية معاوية بن أبى سفيان أنه قام فقال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهى الجماعة، وإنه سيخرج من أمتى أقوام تجارى[٢] بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه».

وحاول الإمام ابن الجوزى حصر هذه الفرق فجعل أصولها ستة وهى:

الحرورية ـ القدرية ـ الجهمية ـ المرجئة ـ الرافضة ـ الجبرية.

ثم ادعى أن كل أصل ينقسم إلى اثنتى عشرة فرقة فيكون المجموع اثنتين وسبعين فرقة كلها هالكة إلا أهل السنة والجماعة.

---

(١) تلبيس إبليس ط إدارة الطباعة المنيرية.

(٢) بحذف إحدى التاءين وأصلها تتجارى أى تدخل وتسرى تلك الأهواء كما يسرى داء الكلب ـ بفتح الكاف واللام ـ الذى يعرض للإنسان من عض الكلب.

## ٤ـ الإمام الشاطبى (ت ٧٩٠هـ)

ساق الإمام الشاطبى روايات حديث الافتراق ثم قال[(١)]:

ولكن الغالب فى هذه الفرق أن يشار إلى أوصافهم ليحذر منها، ويبقى الأمر فى تعيينهم مُرْجًى كما فهمنا من الشريعة، ولعل عدم تعيينهم هو الأولى الذى ينبغى أن يلتزم ليكون سترًا على الأمة، كما سترت عليهم قبائحهم، فلم يفضحوا فى الدنيا بها فى الحكم الغالب العام، وأمرنا بالستر على المذنبين ما لم يُبْد لنا صفحة الخلاف . .

ليس كما ذكر عن بنى إسرائيل أنهم كانوا إذا أذنب أحدهم ذنبًا أصبح وعلى بابه معصيته مكتوبة، وكذلك فى شأن قرابينهم، فإنهم كانوا إذا قربوها أكلت النار المقبول منها وتركت غير المقبول، وفى ذلك افتضاح المذنب، إلى ما أشبه ذلك.

**ثم شرح الشاطبى حكمة الستر على الفرق فقال:**

وقد قالت طائفة إن من الحكمة فى تأخير هذه الأمة عن سائر الأمم أن تكون ذنوبهم مستورة عن غيرهم، فلا يطلع عليها كما اطلعوا هم على ذنوب غيرهم ممن سلف[(٢)].

وللستر حكمة أيضًا وهى أنها لو أظهرت ـ مع أن أصحابها من الأمة ـ لكان فى ذلك داع إلى الفرقة والوحشة وعدم الألفة التى أمر الله بها ورسوله حيث قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الروم: ٣١، ٣٢].

وفى الحديث: «لا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانًا» وأمر عليه الصلاة والسلام بإصلاح ذات البين، وأخبر أن فساد ذات البين هى الحالقة وأنها تحلق الدين. . . ».

---

(١) الموافقات فى أصول الشريعة ـ تحقيق الشيخ عبد الله دراز ـ ص١٣٠، جـ٤.

(٢) أى كما حكاه القرآن عن الأمم السابقة ومواقفهم مع أنبيائهم.

واستثنى الإمام الشاطبى البدعة الفاحشة جدًا كبدعة الخوارج فى اتباعهم ظواهر القرآن من غير تدبر ولا نظر فى مقاصده ومعاقده، وفى قتلهم أهل الإسلام وترك أهل الأوثان. . فما كان من هذه البدع فلا إشكال فى جواز إبدائها وتعيين أهلها. .

واستدل الشاطبى على أن السكوت عن تعيين الفرق أولى بما خرجه أبو داود عن عمر بن أبى قُرة قال:

كان حذيفة بالمدائن، فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ﷺ لأناس من أصحابه فى الغضب، فينطلق ناس ممن سمع ذلك من حذيفة، فيأتون سلمان، فيذكرون له قول حذيفة، فيقول سلمان: حذيفة أعلم بما يقول. .

فيرجعون إلى حذيفة فيقولون له: قد ذكرنا قولك لسلمان، فما صدقك ولا كذبك. فأتى حذيفة سلمان وهو فى مَبْقَلة فقال:

يا سلمان ما يمنعك أن تصدقنى بما سمعت من رسول الله ﷺ؟! فقال:

إن رسول الله ﷺ يغضب فيقول لناس من أصحابه، ويرضى فيقول فى الرضا لناس من أصحابه، أما تنتهى حتى تُورّث رجالاً حب رجال، ورجالاً بُغض رجال، وحتى توقع اختلافًا وفرقة؟! ولقد علمت أن رسول الله ﷺ خطب فقال: «أيما رجل من أمتى سببته سبة أو لعنته فى غضبى فإنما أنا من ولد آدم، أغضب كما يغضبون وإنما بعثنى رحمة للعالمين فأجعلها عليهم صلاة يوم القيامة».

فوالله لتنتهين أو لأكتبن إلى عمر. .

**وذكر الشاطبى اعتراضًا للمخالفين وهو**[1]:

فإن قيل: فالبدع مأمور باجتنابها واجتناب أهلها والتحذير منهم والتشديد بهم، وتقبيح ما هم عليه، فكيف يكون ذكر ذلك والتنبيه عليه غير جائز؟.

**وأجاب الشاطبى**: فالجواب أن النبى ﷺ نبه فى الجملة عليهم، إلا القليل منهم كالخوارج، ونبه على البدع من غير تفصيل، وأن الأمة ستفترق على تلك العدة المذكورة، وأشار إلى خواص عامة فيهم وخاصة، ولم يصرح بالتعيين غالبًا تصريحًا، لقطع العذر[2]، ولا ذكر فيهم علامة قاطعة لا تلتبس، فنحن أولى

(١) ص١٣٢، جـ٤.

(٢) قال محقق الكتاب: حتى لا يسد عليهم باب التوبة بسبب العناد واليأس من رحمة الله.

بذلك معشر الأمة. . واعتذر الشاطبى عن العلماء الأقدمين الذين عينوا أهل البدع بأسمائهم وفرقهم، وعَدَّ ذلك من الاجتهاد الذى قد يكون صوابًا وقد يكون خطأ. . ورفض الشاطبى أن تكون البدع كلها مرتبة واحدة فى الضلال، بل منها ما يكون مكروهًا ومنها ما يكون حرامًا. .

**ثم ساق الشاطبى اعتراضًا آخر هو:**

فإن قيل: فالعلماء يقولون خلاف هذا، وإن الواجب هو التشديد بهم والزجر لهم والقتل ومناصبة القتال إن امتنعوا، وإلا أدى ذلك إلى فساد الدين.

**وأجاب الشاطبى قائلاً:**

إن ذلك حكم فيهم كما هو فى سائر من تظاهر بمعصية صغيرة أو كبيرة أو دعا إليها أن يؤدب، أو يزجر، أو يقتل إن امتنع من فعل واجب أو ترك محرم، كما يقتل تارك الصلاة وإن كان مقرًا، إلى ما دون ذلك، وإنما الكلام فى تعيين أصحاب البدع من حيث هى بدع يشملها الحديث، فتوجيه الأحكام شيء والتعيين للدخول تحت الحديث شيء آخر. . وانتهى الشاطبى إلى أن الفرق وإن كانت على ما هى عليه من الضلال لم تخرج عن الأمة، ودل على ذلك قوله «تفترق أمتى» فإنه لو كانت ببدعتها تخرج من الأمة لم يضفها إليها[1].

وأكد الشاطبى أنه ليس فى النصوص الشرعية ما يدل دلالة قطعية على خروج الخوارج والقدرية وغيرها عن الإسلام.

والأصل بقاء الإسلام حتى يدل دليل على خلافه. . وما أعز وجود مثل هذا الدليل القاطع[2].

* * *

(١) هذا على القول بأن الأمة أمة الإجابة.

(٢) راجع ص ١٤٠، جـ٢.

## ٥- الإمام جلال الدين الدوانى

وفى شرح العقائد العضدية لجلال الدين الدوانى قال[١]:

قال النبى ﷺ: (ستفترق أمتى) أى أمة الإجابة وهم الذين آمنوا به ﷺ، وهو الظاهر فإن أكثر ما ورد فى الحديث على هذا الأسلوب أريد به أهل القبلة.

قال بعض شراح الحديث: ولو حمل على أمة الدعوة لكان له وجه.

وأنت تعلم بعده جدًا فإن فرق الكفر أكثر من هذا العدد بكثير.

(ثلاثًا وسبعين فرقة) السين إما للتأكيد فإن ما هو متحقق الوقوع قريب كما قيل فى قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى:٥] أو بمعناه الحقيقى إشارة إلى أن الاختلاف متراخ عن حياته ﷺ.

وما يتوهم من أنه: إن حمل على أصول المذاهب فهى أقل من هذا العدد. وإن حمل على ما يشمل الفروع فهى أكثر منه.

توهم فاسد لا مستند له، لجواز كون الأصول التى بينها مخالفة معتد بها، بهذا العدد.

وقد يقال: لعلهم فى بعض من الأوقات بلغوا هذا العدد، وإن زادوا أو نقصوا فى أكثر الأوقات.

(كلها فى النار) من حيث الاعتقاد، فلا يرد أنه: إن أريد الخلود فيها فهو خلاف الإجماع فإن المؤمنين لا يخلدون فيها. وإن أريد مجرد الدخول فهو مشترك بين الفرق، إذ ما من فرقة إلا وبعضهم عصاة.

والقول بأن معصية الفرقة الناجية مطلقًا مغفورة بعيد جدًا.

ولا يبعد أن يكون المراد استقلال مكثهم فى النار بالنسبة إلى سائر الفرق ترغيبًا فى تصحيح العقائد.

(إلا واحدة، قيل ومن هم). أى الفرقة الناجية.

(قال: الذين هم على ما أنا عليه وأصحابى) رواه الترمذى.

---

(١) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين - جـ١، ص٤ تحقيق د/ سليمان دنياط الحلبى.

## تعقيب وتعليق

### ١- خطأ الحصر

إن العلماء الذين اهتموا بحصر الفرق وبيان عددها ـ وقفوا عند زمانهم ونسوا أن الليالى حبلى بالمذاهب والآراء والفرق والمعتقدات، وأن الاجتهادات لا تتوقف.

فيا ترى ماذا هم قائلون بعد ألف عام من تعدادهم للفرق وحصرها؟!

وماذا هم قائلون بعد ألفين أو ثلاثة آلاف؟!

إن العدد لا مفهوم له وليس مرادًا به الحصر، وهذا يجرى كثيرًا فى أخبار القرآن وقصصه.

ولنقرأ قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [لقمان: ٢٧].

فالأبحر سواء كانت سبعة أو سبعين أو سبعمائة لن تنفد كلمات الله.

ولنقرأ قوله تعالى: ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ [التوبة: ٨٠].

فالاستغفار سبعين مرة أو أقل أو أكثر لن يغير حكم الله فى المنافقين.

ومن هنا فالاستمساك بالعدد ثلاثًا وسبعين فرقة من الفهم القاصر للحديث الشريف. وقد جهد علماء الفرق أنفسهم فى الوقوف عند هذا العدد فقاموا بعمليات التحليل والتركيب والقبض والبسط فى حصر الفرق بما لا طائل من ورائه، فالبغدادى جعل الخوارج عشرين فرقة، وابن الجوزى جعلهم اثنتى عشرة فرقة.

* * *

## ٢ـ المراد بالأمة

إن تفسير الأمة فى قوله «أمتى» بأنها الأمة الإسلامية ليس من اليقين فى شىء فإن أمة الرسول هى أمة الدعوة فى المقام الأول ولا يراد بها أمة الإجابة إلا بقرائن.

وقد سجل القرآن أن كل نبى بعث إلى قومه وخاطبهم بإضافتهم إلى نفسه، فنادى صالح وهود قومهما بهذا النداء «يا قوم»، فقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال جل شأنه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٣].

ونادى موسى قومه بهذا النداء أيضًا وكذلك نوح.. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [نوح: ١، ٢].

فالقوم هنا بالتأكيد هم قوم الدعوة، الذين جاءهم النبى وبلغهم دعوة الله وناشدهم اتباعها فمنهم من آمن ومنهم من كفر.

وجاء لفظ الأمة فى القرآن بمعنى أمة الدعوة فقال سبحانه ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

فهذه الآية صريحة فى استخدام أمة الرسول بمعنى أمة الدعوة، وعلى هذا فمحاولة حصر عدد الفرق فى دائرة المسلمين ظن ليس بيقين، ولو فسرنا الأمة فى الحديث بأنها أمة الدعوة لأرحنا واسترحنا، فالمسلمون جميعًا أمة واحدة فى مواجهة أمم الكفر المنتشرة فى العالم والتى تتجدد تحت أسماء ومذاهب وفرق فى كل وقت وحين.

وقد حكم الله بأن المسلمين أمة واحدة فقال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا

ربُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

فالمسلمون ـ رغم اختلافهم ـ ملة واحدة فى مواجهة ملل فاسدة، ومذهب واحد فى مواجهة مذاهب باطلة، وفرقة واحدة فى مواجهة فرق ضالة.

وما قاله جلال الدين الدوانى من بُعد حمل الأمة على أمة الدعوة، ليس بشىء، وما علل به رأيه أكثر غرابة..

فالقول بأن فرق الكفر أكثر من العدد الوارد فى الحديث، هو قول مرفوض لأن العدد لا مفهوم له سواء قلنا إنها أمة الإجابة أو أمة الدعوة..

وقد كتب لى أحد الطلاب فى ورقة الامتحان قائلا:

والذى يترجح عندى ـ والعلم عند الله ـ أن المقصود بأمة الافتراق هو أمة الإجابة لعدة وجوه:

**الوجه الأول:** أن الرسول ﷺ ذكر طائفتين من أمة الدعوة، وذكر أنهما مفترقتان، وهما اليهود والنصارى، وهما من أمة الدعوة قطعًا..

**الوجه الثانى:** أنه إذا لم تكن أمة الإجابة فلا فائدة للحديث لأن أمة الدعوة قطعًا مفترقون..

**الوجه الثالث:** أن الواقع يحتم هذا الأمر، لأن أمة الإجابة حصل فيها افتراق كثير وهذا لا يخفى.. وقوله ﷺ «كلها فى النار إلا واحدة» لا يقتضى التخليد بقرينة النصوص الأخرى.

وقد حمدت للطالب ما كتب وكافأته بزيادة درجة نجاحه ولكنى أقول: إن أمة الدعوة ليست وقفًا على اليهود والنصارى، بل هى تشمل العالمين بما فيهم المشركون والملحدون والمجوس والصابئة وكافة أصحاب العقائد الباطلة، فيكون قوله ﷺ: «وتفترق أمتى» تعميما بعد تخصيص، ثم إن الرسول ﷺ ذكر اليهود والنصارى وافتراقهم فيما مضى، ثم أضاف بقوله «أمتى» استمرار افتراقهم فيما يستقبل..

وفائدة الحديث قائمة سواء قلنا إنها أمة الإجابة أو أمة الدعوة، وهذه الفائدة هى التحذير من الافتراق وذمه..

وقد ناقشنى أحد الزملاء الفضلاء وقال:

إن حمل الأمة على أمة الدعوة بعيد، لأن الحديث وارد مورد الذم، ولأن الكفر كله ملة واحدة، وكيف يتحقق الولاء مع أهل البدع؟! وأقول:

إن الحديث لم يقل: «ويفترق المسلمون» كما قال «افترقت اليهود»، «وتفرقت النصارى».

واليهود هم أمة الإجابة لموسى عليه السلام، والنصارى هم أمة الإجابة لعيسى عليه السلام.

فلما عبّر بالأمة ولم يستخدم كلمة المسلمين ساعد ذلك على ترجيح أن الأمة هى أمة الدعوة لسيدنا محمد ﷺ.

والكفر وإن كان ملة واحدة فى الجزاء الأخروى، وهو الخلود الأبدى فى جهنم وبئس القرار، إلا أن الكفر أنواع وعقائد متباينة، فالأديان الوثنية لا حصر لها، والمذاهب الإلحادية أكثر من أن تعد، والشرك الذى طرأ على رسالات الأنبياء له فرقه وطوائفه المتكثرة.. فترجيح أن المراد بالأمة أمة الدعوة له أثر كبير فى حفز همم الدعاة المسلمين إلى البحث والدراسة والتمحيص والجهاد الكبير فى مواجهة أمم الكفر وإلزامهم الحجة..

ومدلول الحديث فى ذم الافتراق والتحذير من الاختلاف والشقاق قائم سواء قلنا إن الأمة هى أمة الإجابة أو أمة الدعوة، فما كفر الناس إلا لتحزبهم الأعمى وتشيعهم للباطل وأتباعهم للهوى..

وإن الولاء للمؤمنين والبراء من الكافرين يتحقق بشكل أوضح إذا حملنا الأمة على أمة الدعوة، فإن أهل البدع لا نكفرهم، ولهم من الولاء بقدر ما معهم من الإيمان، ونحن ننصح ونترفق بهم، ونحاورهم ونرشدهم ولا نكون عونًا للشيطان عليهم..

ولعل مما يحسم الخلاف، ويرجح أن المراد بالأمة أمة الدعوة قول رسول الله ﷺ ـ كما فى صحيح مسلم ـ: «والذى نفس محمد بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة، يهودى ولا نصرانى، ثم يموت ولا يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أهل النار».

فالمراد بالأمة هنا قطعًا أمة الدعوة.

## ٣ـ مفهوم الفرقة الناجية

إن قوله ﷺ فى وصف الفرقة الناجية: «ما أنا عليه وأصحابى» قضية متفق عليها حتى ولو لم ترد نصًا، فمقتضى الإيمان بالرسالة والرسول أن تكون الفرقة الناجية هى أمة الإسلام، وهم أهل السنة والجماعة بالمفهوم الشرعى.

وكل الفرق الإسلامية تدعى لنفسها أنها أهل السنة والجماعة.

وقد نقل جلال الدين الدوانى أن نصير الدين الطوسى عين الفرقة الناجية بأنها الإمامية من الشيعة(١).

وعينها كثير من علماء الفرق بأنها الأشاعرة.

وقال الإمام ابن تيمية:

إن أحق الناس بأن تكون هى الفرقة الناجية ـ أهل الحديث والسنة الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله ﷺ، وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله، وأعظمهم تمييزًا بين صحيحها وسقيمها»(٢).

واليوم تتنازعها كافة الجماعات الإسلامية على مستوى العالم الإسلامى فإذا كان المقصود بالفرقة الواحدة الناجية هى الدين الواحد الذى هو الإسلام فهذا صحيح ولا ريب، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٨٥].

وإذا كان المقصود فرقة معينة داخل فرق المسلمين، يجب التسليم بكل آرائها فهذا محل نظر، لأنه لا عصمة بعد الأنبياء، وكل إنسان يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب الروضة الشريفة.

والميزان الصحيح أن ترد المسائل مسألة مسألة إلى كتاب الله وسنة رسوله..

ولهذا كان الإمام ابن تيمية دقيقًا عندما قال(٣):

---

(١) الشيخ محمد عبده بين الكلاميين والفلاسفة ـ جـ١، ص٢٩ تحقيق د/ سليمان دنياط الحلبى.

(٢) مجموع الفتاوى جـ٣، ص٣٤٧.

(٣) مجموع الفتاوى جـ٣، ص٣٤٨.

ومما ينبغى أيضًا أن يعرف أن الطوائف المنتسبة إلى متبوعين فى أصول الدين والكلام - على درجات، منهم من يكون قد خالف السنة فى أصول عظيمة، ومنهم من يكون إنما خالف السنة فى أمور دقيقة، ومن يكون قد رد على غيره من الطوائف الذين هم أبعد عن السنة منه، فيكون محمودًا فيما رده من الباطل وقاله من الحق.

لكن يكون قد جاوز العدل فى رده بحيث جحد بعض الحق وقال بعض الباطل، فيكون قد رد بدعة كبيرة ببدعة أخف منها.

ورد باطلاً بباطل أخف منه، وهذه حال أكثر أهل الكلام المنتسبين إلى السنة والجماعة.

ومثل هؤلاء إذا لم يجعلوا ما ابتدعوه قولاً يفارقون به جماعة المسلمين، يوالون عليه ويعادون كان من نوع الخطأ، والله سبحانه وتعالى يغفر للمؤمنين خطأهم فى مثل ذلك.

ولهذا وقع فى مثل هذا كثير من سلف الأمة وأئمتها، لهم مقالات قالوها باجتهاد وهى تخالف ما ثبت فى الكتاب والسنة».

* * *

## ٤ـ المراد من قوله: «كلها فى النار»

إن قوله ﷺ: «كلها فى النار إلا واحدة» لا يعنى كفر باقى الفرق إن حملنا الأمة على أمة الإجابة، ودخول المؤمن النار لا يكون على وجه الخلود الأبدى، وقد يستحق المؤمن النار ولكن يعفو الله عنه، فمغفرة ما دون الشرك فى إطار المشيئة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾ [النساء: ١١٦].

والفرق الإسلامية تشترك فى أصول الدين وتتوحد عقيدتها فى جوهر الإيمان، وللإمام ابن تيمية كلام طيب فى هذا المقام فقد حكى أن السلف والأئمة لم يتنازعوا فى عدم تكفير المرجئة والشيعة المفضلة ونحو ذلك، وقال: ولم تختلف نصوص أحمد فى أنه لا يكفر هؤلاء وإن كان من أصحابه من حكى فى تكفير جميع أهل البدع ـ من هؤلاء وغيرهم ـ خلافًا عنه أو فى مذهبه، حتى أطلق بعضهم تخليد هؤلاء وغيرهم، وهذا غلط على مذهبه وعلى الشريعة.

ثم قال: ومنهم من لم يكفر أحدًا من هؤلاء إلحاقًا لأهل البدع بأهل المعاصى، قالوا فكما أن أصول أهل السنة والجماعة أنهم لا يكفرون أحدًا بذنب فكذلك لا يكفرون أحدًا ببدعة..».

ثم ذكر ابن تيمية فصل الخطاب بالتنبيه على أصلين:

**الأصل الأول:** أن يعلم أن الكافر في نفس الأمر من أهل الصلاة لا يكون إلا منافقًا، فإن الله منذ بعث محمدًا ﷺ وأنزل عليه القرآن وهاجر إلى المدينة صار الناس ثلاثة أصناف: مؤمن به، وكافر به مظهر الكفر، ومنافق مستخف بالكفر.. ولهذا ذكر الله هذه الأصناف الثلاثة فى أول سورة البقرة، ذكر أربع آيات فى نعت المؤمنين، وآيتين فى الكفار، وبضع عشرة آية فى المنافقين.

وبناء على هذا الأصل قال ابن تيمية:

فأهل البدع فيهم المنافق الزنديق فهذا كافر، ويكثر مثل هذا فى الرافضة والجهمية فإن رؤساءهم كانوا منافقين زنادقة، وأول من ابتدع الرفض كان منافقًا،

وكذلك التجهم فإن أصله زندقة ونفاق.

وهذا المعنى الذى يؤكده ابن تيمية يشير إلى أن أعداء الإسلام قد يتظاهرون بالصلاة وغيرها من العبادات ليثيروا الفتنة ويمزقوا الأمة كما فعل المنافقون على عهد رسول الله ﷺ..

ويفرق ابن تيمية بين هؤلاء الزعماء المأجورين المنافقين وبين أتباعهم من عامة المسلمين فيقول:

ومن أهل البدع من يكون فيه إيمان باطنًا وظاهرًا لكن فيه جهل وظلم حتى أخطأ ما أخطأ من السنة، فهذا ليس بكافر ولا منافق، ثم قد يكون فيه عدوان وظلم يكون به فاسقًا أو عاصيًا، وقد يكون مخطئًا متأولاً مغفورًا له خطأه، وقد يكون مع ذلك معه من الإيمان والتقوى ما يكون معه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه.

**الأصل الثانى**: أن المقالة قد تكون كفرًا كجحد وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج، وتحليل الزنا والخمر، والميسر، ونكاح ذوات المحارم، ثم القائل بها قد يكون بحيث لم يبلغه الخطاب، وهذا لا يكفر به جاحده كمن هو حديث عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة لم تبلغه شرائع الإسلام..

فهذا لا يحكم بكفره بجحد شيء مما أنزل على الرسول، إذا لم يعلم أنه أنزل على الرسول.

ومقالات الجهمية هى من هذا النوع فإنها جحد لما هو الرب تعالى عليه ولما أنزل الله على رسوله.

ثم علل الإمام ابن تيمية عدم تكفيره لأهل البدع بأمور ثلاثة هى:

١ـ التأويل فهم متأولون وليسوا رادين لما أنزل.

٢ـ وأن أصل الإيمان الإقرار بالله وأن أصل الكفر الإنكار لله وهم ليسوا منكرين.

٣ـ وأن لهم دلائل وشبهات قد تخفى على كثير من المؤمنين.

وهذه هى عبارته بالنص:

وتغلظ مقالاتهم من ثلاثة أوجه:

**أحدها:** أن النصوص المخالفة لقولهم فى الكتاب والسنة والإجماع كثيرة جدًا مشهورة وإنما يردونها بالتحريف. .

**الثانى:** أن حقيقة قولهم تعطيل الصانع، وإن كان منهم من لا يعلم أن قولهم مستلزم تعطيل الصانع، فكما أن أصل الإيمان الإقرار بالله فأصل الكفر الإنكار لله.

**الثالث:** أنهم يخالفون ما اتفقت عليه الملل كلها وأهل الفطر السليمة كلها لكن مع هذا قد يخفى كثير من مقالاتهم على كثير من أهل الإيمان حتى يظن أن الحق معهم لما يوردونه من الشبهات.

ويكون أولئك المؤمنون مؤمنين بالله ورسوله باطنًا وظاهرًا وإنما التبس عليهم واشتبه هذا كما التبس على غيرهم من أصناف المبتدعة، فهؤلاء ليسوا كفارًا قطعًا، بل قد يكون منهم الفاسق والعاصى، وقد يكون منهم المخطئ المغفور له، وقد يكون معه من الإيمان والتقوى ما يكون معه به من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه.

واستدل ابن تيمية على ذلك فقال:

وأصل قول أهل السنة الذى فارقوا به الخوارج والجهمية والمعتزلة والمرجئة أن الإيمان يتفاضل ويتبعض، كما قال النبى - ﷺ -: «يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان» وحينئذ فتتفاضل ولاية الله وتتبعض بحسب ذلك[1].

* * *

(١) راجع مجموع الفتاوى جـ٣، ص٣٤٥، ٣٥٨.

## ٥ـ رواية ورأى

ذكر الدكتور عبد الحليم محمود رأيًا وجيهًا فقال:

ولكن مما يدعو إلى الارتياح ويثلج الصدور أن الشعرانى فى ميزانه قد روى من حديث ابن النجار، وصححه الحاكم بلفظ غريب وهو:

«ستفترق أمتى على نيف وسبعين فرقة، كلها فى الجنة إلا واحدة».

وفى رواية عن الديلمى «الهالك منها واحدة».

وفى هامش الميزان عن أنس عن النبى ﷺ بلفظ:

تفترق أمتى على بضع وسبعين فرقة كلها فى الجنة إلا الزنادقة.

وما فى هامش الميزان هذا مذكور فى تخريج أحاديث مسند الفردوس للحافظ ابن حجر ولفظه:

«تفترق أمتى على بضع وسبعين فرقة، كلها فى الجنة إلا واحدة، وهى الزنادقة اسنده عن أنس».

وقال صاحب كشف الخفاء: ولعل وجه التوفيق أن المراد بأهل الجنة فى الرواية الثانية ولو مآلا فتأمل.

وأخيرًا نذكر رأى الإمام ابن حزم، قال:

ذكروا حديثًا عن رسول الله ﷺ ـ أن القدرية والمرجئة مجوس هذه الأمة، وحديثًا آخر «تفترق هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة كلها فى النار حاشا واحدة فهى فى الجنة».

قال أبو محمد: هذان حديثان لا يصحان أصلاً من طريق الإسناد وما كان هكذا فليس حجة عند من يقول بخبر الواحد، فكيف من لا يقول به؟!!.

* * *

---

(١) التفكير الفلسفى فى الإسلام جـ١، ص١٠٠ ـ ط مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٨م.

(٢) الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ٣، ص٢٤٧ ـ طبعة دار الفكر.

# المبحث الثالث

## قضايا الافتراق

- التوحيد.
- القضاء والقدر.
- الإمامة.
- الوعد والوعيد.
- فقه العبادات والمعاملات.
- الفكر الوافد.
- التجديد الديني.

## تمهيد

أسباب نشأة الفرق بين المسلمين لا تكاد تختلف عن أسباب نشأتها فى أى دين أو ملة أو جنس. .

فنحن نرى أن الأسباب واحدة، لكن جزئياتها وتفاصيل أحداثها هى التى تتخذ شكل المكان أو الزمان أو العقيدة. .

ففى كل الأحوال توجد أسباب داخلية وأسباب خارجية. . وفى جميع الملل ينضوى أفراد لهم خيال الشعراء أو حكمة الفلاسفة أو سلوك الأوابين.

وفى كافة الأديان هناك من يجنح إلى التأويل والإكبار للعقل الإنسانى، وهناك من يلتزم النص ويقف عند الظواهر. . وفى سائر الأزمان وجد المنافقون والخائنون وأصحاب الهوى. . وتربص بكل أمة أعداء من الخارج يسعون لاستئصال شأفتها، والقضاء على مقوماتها، والعبث بتراثها وقيمها. .

ومن هنا لسنا نقف عند الأسباب فى حد ذاتها، وإنما نبحث عن القضايا التى تخص الأمة الإسلامية، والتى دار حولها الافتراق. . وهذه القضايا هى:

- التوحيد والصفات الإلهية.
- القضاء والقدر والتكليف الإنسانى.
- الإمامة والخلافة ونظام الحكم.
- وعد الله ووعيده وحكم مرتكب الكبيرة.
- فقه العبادات والمعاملات.
- الفكر الوافد.
- التجديد الدينى.

* * *

# القضية الأولى

## التوحيد والصفات الإلهية

- تساؤلات القرآن.
- حوار القرآن مع علماء أهل الكتاب.
- تساؤلات السنة
- تساؤلات الفرق

## التوحيد والصفات الإلهية

الإنسان بطبيعته يتساءل عن الوجود، ويبحث عن العلل والمعلولات..
ويحاول أن يكتشف المجهول، ويضع علامات استفهام كبرى:
من أين هذا الوجود؟
وإلى أين المصير؟
وكيف وجد هذا الكون الفسيح؟
وما الغاية منه؟ ولم وجد؟

وجاءت رسل الله، وقامت الفلسفات، واجتهد الناس قديمًا وحديثًا، ولَمّا تنقطع هذه التساؤلات، ولَمّا يهدأ العقل الإنسانى، وظل مجتمع البشر يتعايش فيه المؤمن والكافر، ويتواجد فيه صاحب الفضيلة وصاحب الرذيلة، ويتصارع فيه الفلاسفة والعلماء..

* * *

## تساؤلات القرآن

وفى فجر الإسلام دارت تساؤلات عدة حول الألوهية والنبوة والبعث وقال المشركون كما حكى القرآن:

* ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].
* ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].
* ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].
* ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وذات يوم قالوا للرسول ﷺ: انسب لنا ربك فأنزل الله تعالى سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

وجاءت تساؤلات كثيرة من المسلمين واليهود والمشركين، ساقها القرآن بأسلوب «يسألونك» تضمنت عقائد ونواميس وأخباراً وأحكاماً.

فمن العقائد:

* ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

* ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧].

* ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢ ـ ٤٤].

ومن النواميس:

* ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

ومن الأخبار:

* ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣].

ومن الأحكام:

* ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

* * *

## حوار القرآن مع أهل الكتاب

وأقام القرآن حوارًا بين الرسول ﷺ وعلماء أهل الكتاب فى قضايا العقيدة المتصلة بالألوهية والرسالة..

فحول قضية التوحيد جاءت آيات كثيرة مثل: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

وحول قضية عيسى عليه السلام جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩-٦١].

وحول قضية إبراهيم عليه السلام جاء قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥].

وساق القرآن مجموعة تساؤلات وردت بلفظ «سل، واسأل» حملها الرسول ﷺ كى يوجهها لعلماء أهل الكتاب إلزامًا لهم وحجة عليهم.

مثل قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤]. والمراد هنا تأكيد بشارات الأنبياء بسيدنا محمد ﷺ.

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١]. والمراد هنا تأكيد صدق القرآن فيما أخبر عن بنى إسرائيل..

﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]. والمراد هنا سؤال علماء أهل الكتاب وتأكيد قضية التوحيد التى التقى عليها رسل الله جميعًا.

## تساؤلات السنة

فإذا انتقلنا إلى ما سجلته كتب السنة النبوية وجدنا تساؤلات متعددة وقعت من الصحابة لرسول الله ﷺ، تتعلق بقضايا العقيدة الكبرى وبدء الخلق ونهاية الوجود وآفاق الملأ الأعلى، وعلى سبيل المثال فقد أخرج البخارى فى صحيحه بسنده عن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال:

دخلت على النبى ﷺ، وعقلت ناقتى بالباب، فأتاه ناس من بنى تميم فقال: اقبلوا البشرى يا بنى تميم.

قالوا: قد بشرتنا فأعطنا (مرتين).

ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن أن لم يقبلها بنو تميم.

قالوا: قد قبلنا يا رسول الله.. جئنا نسألك عن هذا الأمر.

قال: كان الله ولم يكن شىء غيره..

وكان عرشه على الماء..

وكتب فى الذكر كل شىء..

وخلق السموات والأرض..

قال عمران: «فنادى مناد، ذهبت ناقتك يا ابن الحصين، فانطلقت فإذا هى يقطع دونها السراب، فوالله لوددت أنى كنت تركتها» ففى هذا الحديث يقص عمران بن حصين مشهدًا فى حضرة رسول الله ﷺ، لقد دخل عليه بنو تميم فقال لهم اقبلوا البشرى أى هلموا أعلمكم عملاً صالحًا يصل بكم إلى الجنة ويحقق لكم السعادة الأبدية، لكن القوم ظنوا البشرى مالاً ومآكل ومشارب فطلبوا العطاء العاجل وألحوا فى سؤاله..

وفى هذه الأثناء دخل قوم آخرون جاءوا من أجل الهدف السامى ومعرفة الوجود الأعلى والاستقامة على الحق.. فبدأ الرسول ﷺ يشرح الحق ويبين بدء الخلق ويجيب على تساؤلات القوم..

وأخرج البخارى بسنده عن الزهرى قال:

أخبرنى أنس بن مالك رضى الله عنه: أن النبى ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلى الظهر، فلما سلم قام على المنبر، وذكر الساعة، وذكر أن بين يديها أمورًا عظامًا، ثم قال: من أحب أن يسأل عن شىء فليسأل عنه، فوالله لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم به ما دمت فى مقامى هذا. .

قال أنس: فأكثر الناس البكاء، وأكثر رسول الله ﷺ أن يقول سلونى، فقام إليه رجل فقال: أين مدخلى يا رسول الله؟ قال: النار، فقام عبد الله بن حذافة فقال: من أبى يا رسول الله؟

قال: أبوك حذافة. .

قال أنس: ثم أكثر رسول الله ﷺ أن يقول: سلونى. . سلونى، فبرك عمر على ركبته فقال: رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، ومحمد ﷺ رسولاً. .

فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك ثم قال:

«والذى نفسى بيده لقد عرضت علىّ الجنة والنار آنفًا فى عرض هذا الحائط، وأنا أصلى، فلم أر كاليوم فى الخير والشر» ومعنى هذا الحديث أن النبى ﷺ أخذ يحث الناس على التساؤل عما يعن لهم من أمور الدين وعقائد الإسلام وحقائق الوجود، لكن البعض أخذ يسأل استهزاء أو تعجيزًا أو لهوًا. .

حتى سأل أحدهم عن مصيره فى الآخرة أفى الجنة أم النار؟

وسأل أحدهم عن حقيقة نسبه إلى أبيه. .

وهنا أدرك عمر بن الخطاب بفطرته ونقاء سريرته وصدق عقيدته أن الأمر بدأ يأخذ مسلكًا غير طبيعى فجثا على ركبته وقال رضينا بالله ربًا وبالإسلام دينًا ومحمد ﷺ رسولاً. .

* * *

## تساؤلات الفرق

فإذا كان هذا هو ما حدث فى فجر الإسلام والوحى يتنزل والنبى ﷺ بين ظهرانى أصحابه فهل تتوقف التساؤلات وينقطع الحوار على امتداد الزمن وتعاقب الأجيال مع استمرار أسبابه ودواعيه؟!

إن اختلاف الفرق الإسلامية حول قضية التوحيد والصفات الإلهية هو امتداد لفهم قضايا الوجود الكبرى والبحث عن الحقائق الأزلية. .

لقد طرحت تساؤلات بين الفرق الإسلامية مثل:

* هل الوجود عين الموجود أو لا؟
* هل الصفات عين الذات أو زائدة عليها؟
* هل تقوم الحوادث بذاته تعالى أو لا؟
* هل البقاء هو الوجود المستمر أو زائد على الوجود؟
* هل كلام الله معنى نفسى أو حرف وصوت؟
* هل الاسم عين المسمى أَوْ لا؟
* هل لله صفات هى اليد والوجه والاستواء. . أو لا؟
* هل يجب على الله شىء؟ وما معنى الوجوب على الله؟
* هل تتعلق إرادة الله وقدرته بأفعال العباد التكليفية؟

وتنازعت الفرق الإسلامية فى جواب تلك التساؤلات التى افترضوها وابتدعوها. لقد أقحمت قضايا ليست من أصول الدين، ولم يتطرق إليها الوحى، والجهد العقلى فيها ضامر يتجاوز مداه، ويخوض فيما لا يجوز، ويقيس الغائب على الشاهد، ويهوى فى متاهة فكرية لا عاصم لها ولا حدود فيها، ويجادل بغير علم. ومن الخير للدين والعقل أن نحذر الخوض فى هذه التساؤلات بتأكيد شهادة أن لا إله إلا الله وتقريرها على الوجه القرآنى فى الربوبية والألوهية والكمال المطلق والجلال الأعظم.

﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ [طه: ١١٠، ١١١].

﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١].

# القضية الثانية

## القضاء والقدر

- الإيمان بالقضاء والقدر.
- النشأة التاريخية.
  - موقف المشركين.
  - موقف المنافقين.
  - موقف الصحابة.
- ملخص القضية.

## الإيمان بالقضاء والقدر

الإيمان فى مفهومه الذى يجب اعتقاده والتصديق به يتضمن أركانًا تبدأ بتوحيد الله تعالى، وتشمل التصديق بالملائكة والنبيين والكتب المنزلة واليوم الآخر ثم التصديق بالقضاء والقدر.

والنص على هذا الركن حدث به المصطفى ﷺ وأكده فى الرواية المشهورة حين جاء جبريل عليه السلام فى صورة أعرابى وأخذ يسأل النبى ﷺ أمام الصحابة عن حقائق الدين وعلامات الساعة.

وقد خرج الحديث الإمام البخارى والإمام مسلم فى صحيحيهما وجاءت مقدمة لهذا الحديث ساقها الإمام مسلم بسنده عن يحيى بن يعمر قال:

كان أول من قال فى القدر بالبصرة معبد الجهنى، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميرى حاجين أو معتمرين، فقلنا لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء فى القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبى، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله فظننت أن صاحبى سيكل الكلام إلىّ، فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويتقفرون[1] العلم، وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف[2].

قال ابن عمر: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برىء منهم وأنهم برآء منى، والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحُد ذهبًا فأنفقه ما قَبِل الله منه حتى يؤمن بالقدر.

ثم قال: حدثنى أبى عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر

(١) تفقر العلم بتقديم الفاء على القاف أو العكس معناه طلب العلم والبحث عن غامضه واستخراج خفيه.

(٢) أى مستأنف لم يسبق به علم من الله تعالى وإنما يعلمه بعد وقوعه.

السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه. ووضع كفيه على فخذيه وقال:

يا محمد أخبرنى عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً.

قال: صدقت، قال عمر: فعجبنا له يسأله ويصدقه.

قال: فأخبرنى عن الإيمان: قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت، قال: فأخبرنى عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: فأخبرنى عن الساعة قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرنى عن أمارتها قال: أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان، قال عمر: ثم انطلق، فلبث مليًا ثم قال لى: يا عمر أتدرى من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

وقضية الإيمان بالقضاء والقدر ترتبط ارتباطًا جوهريًا بقضية توحيد الله تعالى ذاتًا وصفاتٍ وأفعالاً، وتتصل اتصالاً وثيقًا بعلم الله الشامل المحيط الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة.

وفى بيان المراد بالقضاء والقدر شرعًا قال الإمام النووى:

«واعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر، ومعناه أن الله تبارك وتعالى قدر الأشياء فى القدم، وعلم أنها ستقع فى أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى، وعلى صفات مخصوصة، فهى تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى»[(١)].

وقال الراغب الأصفهانى: والقضاء من الله تعالى أخص من القدر، لأنه الفصل بين التقدير، فالقدر هو التقدير، والقضاء هو الفصل والقطع، وقد ذكر بعض العلماء أن القدر بمنزلة المعد للكيل، والقضاء بمنزلة الكيل. وهذا كما قال أبو عبيدة لعمر رضى الله عنهما لما أراد الفرار من الطاعون بالشام: أتفر من القضاء؟! قال: أفر من قضاء الله إلى قدر الله.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ١، ص١٥٤.

تنبيهًا إلى أن القدر ما لم يكن قضاء فمرجو أن يدفعه الله فإذا قضى فلا مدفع له، ويشهد لذلك قوله: «وكان أمرًا مقضيًا» وقوله: «كان على ربك حتمًا مقضيًا»، وقوله: «وقضى الأمر» أى فصل تنبيهًا أنه صار بحيث لا يمكن تلافيه»[١].

ولئن سلمنا للراغب رأيه فى العلاقة بين القضاء والقدر فإننا نتوقف فى الاستشهاد بمقالة أبى عبيدة ورد عمر عليه، فالنص الوارد فى صحيح البخارى وصحيح مسلم بلفظ القدر هكذا:

فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفرارًا من قدر الله؟

فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت إن كان لك إبل هبطت واديًا له عدوتان[٢] إحداهما خصيبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله[٣].

وذهب الإمام ابن حزم الأندلسى إلى أن معنى قضى وقدر حكم ورتب، ومعنى القضاء والقدر حكم الله تعالى فى شىء بحمده أو ذمه أو تكوينه أو ترتيبه على صفة كذا إلى وقت كذا[٤].

* * *

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الراغب، تحقيق نديم مرعشلى ص٤٢٢ ط دار الفكر.

(٢) العدوة بضم العين وكسرها جانب الوادى.

(٣) فتح البارى لابن حجر جـ١٠، ص١٧٩، وصحيح مسلم بشرح النووى جـ١٤، ص٢١٠.

(٤) الفصل فى الملل والأهواء والنحل تحقيق د/ محمد نصر، د/ عبد الرحمن عميرة جـ٣، ص٧٨.

## النشأة التاريخية

**• موقف المشركين:**

من الأمور الشائكة التى تكلم الناس فيها قديمًا وحديثًا مسألة القضاء والقدر، وحاول المشركون على عهد رسول الله ﷺ الاحتجاج بالقدر ونزل قوله تعالى ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا من شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

فهذه شبهة تشبث بها المشركون فى شركهم وتحريم ما حرموا من الطيبات بأن الله مطلع على ما هم فيه وهو قادر على تغييره بأن يلهمهم الإيمان ويحول بينهم وبين الكفر، ولما لم يغيره فهموا أن الله تعالى شاء ذلك منهم وأراده ورضى عنه.

ورد الله تعالى عليهم بأن هذه الشبهة قد ضل بها أقوام من قبل، وهى حجة داحضة باطلة، لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم، فهم فى زعمهم هذا واهمون وعلى اعتقاد فاسد.

وتكرر هذا المعنى فى قوله جل شأنه:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا من دُونه من شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا من دُونه من شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ من قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٣٥].

**وجاء فى تفسير هذه الآية:**

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم «لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء» أى من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل به سلطانًا.

ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهًا لما فعلناه لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكننا منه.

قال الله تعالى رادًا عليهم شبهتهم: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ أى ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهى، وبعث فى كل أمة أى فى كل قرن وطائفة من الناس رسولاً، وكلهم يدعون إلى عبادة الله وينهون عن عبادة ما سواه(١).

وفى موقف آخر حكى القرآن مقالة المشركين فى رفضهم الإنفاق وإطعام الفقراء محتجين بالقضاء والقدر فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:٤٧].

والمعنى أنهم رفضوا الإنفاق بحجة أن الله تعالى يريد لهؤلاء الفقر ولا يجوز أن يغنيهم الناس ولو شاء الله لأغناهم.

ووصف القرآن هذا الزعم بأنه ضلال واضح بَيِّن.

**• موقف المنافقين:**

وعقب غزوة أُحُد دار الجدل طويلاً حول القضاء والقدر بين المسلمين والمنافقين، وطرحت فيه اتجاهات متعددة سجلها القرآن المجيد فى قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ (٢) لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١٥٣، ١٥٤].

فى غزوة أحد ابتلى المؤمنون بلاء شديدًا، بسبب مخالفة الرُّماة لأمر الرسول ﷺ، فتركوا مواقعهم التى يحمون منها ظهور المسلمين ونزلوا يجمعون الغنائم

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢، ص٥٦٨.

(٢) غمًا على غم، فتراكم عليهم غم الهزيمة وغم إشاعة قتل الرسول.

بعد فرار المشركين وهزيمتهم، وبمجرد أن ترك الرماة مواقعهم تنبَّه المشركون وكرُّوا على المسلمين فقتلوا منهم سبعين شهيدًا، وتفرق الجيش الإسلامي..

وأخذ الرسول ﷺ ينادى عليهم قائلاً: إلىّ عباد الله، أنا رسول الله، من كرّ فله الجنة..

وتراكم على المسلمين غم على غم، غم الهزيمة وغم إشاعة أن الرسول قتل، أو غم ما أصابهم عند الفشل والتنازع وغم ما وقع عليهم من الهزيمة، أو غم ما فاتهم من الغنائم وغم ما أصابهم من القتل..

وأيًا ما كان فإن الغموم تعاقبت عليهم ليصير ذلك زجرًا لهم عن المعصية والمخالفة، وتربية لنفوسهم، ودافعًا لهم لتجاوز الواقع الأليم..

ثم بينت الآية أن الناس يوم أحد كانوا فريقين:

فريقًا آمن واستقر الإيمان فى قلبه، فهؤلاء آمنوا وجاءهم النعاس فى وقت ما ولم يشعروا بخوف ليقينهم أن الله ناصر دينه.

وفريقًا أهمتهم أنفسهم، ولم يكن لهم من هدف إلا الغنيمة، فلما غشى القوم ما غشيهم نالهم الفزع الأكبر، وظنوا بالله غير الحق ظن الجاهلية، وحملوا الرسول مسئولية قتل من قُتل بناء على أنه ﷺ آثر الخروج من المدينة حتى وصل أحد، وكان رأيهم أن يظلوا بالمدينة مدافعين عنها، لا يخرجون منها..

فمعنى قوله تعالى على لسان المنافقين: ﴿**هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ**﴾ أنه استفهام إنكارى يراد به هل لنا من أمر يطاع؟.

ونظيره قوله تعالى: ﴿**لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا**﴾ [آل عمران: ١٦٨].

أو المعنى أين ما كان يعدنا به محمد من النصر والغلبة؟.

وللرد على هذا التساؤل بمعنييه جاء قوله تعالى: ﴿**قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾.

فالذين توهموا أن خروجهم إلى أحد عجل لهم الموت، ذكرهم القرآن المجيد أن الحذر لا يدفع القدر، وأن التدبير لا يقاوم التقدير، وأن الذين قدَّر الله عليهم القتل لا بد أن يُقتلوا فى مصارعهم التى علمها الله أزلاً..

والذين توهموا أن هزيمة أُحُد تعنى أن الله تخلى عن رسوله ولم يؤيده، ذكرهم القرآن بأن الابتلاء قرين الإيمان، وأنه ليس هناك جهاد بغير تضحيات، وليس هناك معركة بغير شهداء، وإنما هى إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة، كما قال تعالى: ﴿ **إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وهكذا كانت غزوة أحد مثارًا للفكر والجدل حول مسألة الحرية الإنسانية أو القضاء والقدر..

**• موقف الصحابة:**

وجاءت روايات تفيد أن الصحابة - رضى الله عنهم - أفرادًا وجماعات تكلموا فى أمر القضاء والقدر.

وعلى سبيل المثال فقد أخرج البخارى فى صحيحه بسنده أن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال: إن رسول الله - ﷺ - طرقه وفاطمة بنت النبى - ﷺ - ليلة فقال: ألا تصليان؟ فقلت: يا رسول الله أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا.

فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلىّ شيئًا ثم سمعته وهو مولٍ يضرب فخذه وهو يقول: ﴿ **وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً** ﴾ [الكهف: ٥٤].

لقد حرص الرسول الكريم على إيقاظ ابنته وزوجها لصلاة الليل حتى يتعرضا لنفحات الله ويحصلا على الثواب الجزيل الذى أعده الله للمستغفرين بالأسحار.

واعتذر على بن أبى طالب رضى الله عنه بالقدر، قال: يا رسول الله أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا.

وبمجرد أن سمع الرسول الكريم هذا الاعتذار لم يراجع عليًا بشىء وإنما خرج متعجبًا وهو يتذكر الآية الكريمة: ﴿ **وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً** ﴾.

وفى فقه هذا الحديث قال الإمام ابن حجر:

أنه ليس للإمام أن يشدد فى النوافل حيث قنع ﷺ بقول على - رضى الله عنه: أنفسنا بيد الله، لأنه كلام صحيح فى العذر عن التنفل ولو كان فرضًا ما عذره.

وأما ضربه فخذه وقراءته الآية فدال على أنه ظن أنه أحرجهم فندم على إنباههم.

وقال النووى: «المختار أنه ضرب فخذه تعجبًا من سرعة جوابه وعدم موافقته له على الاعتذار بما اعتذر به والله أعلم»[1].

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ خرج على الصحابة وهم يتنازعون فى القدر، هذا ينزع آية، وهذا ينزع آية فكأنما فقئ فى وجهه حب الرمان فقال:

«بهذا أمرتم ـ أو بهذا وكلتم ـ أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟!، انظروا إلى ما أمرتم به فاتبعوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه» رواه أحمد وابن ماجة.

وفى موقف آخر تساءل الصحابة مع رسول الله فى أمر القدر، وجاء فى صحيح مسلم أن على بن أبى طالب قال:

كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكث[2] بمخصرته ثم قال: ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة، فقال رجل: يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال: من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة، اعملوا فكل ميسر، أما أهل السعادة فميسرون لعمل أهل السعادة وأما أهل الشقاوة فميسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ:

﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ** ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠].

وتعدد تساؤل الصحابة فى هذا الأمر، فجاء سراقة بن مالك وقال:

يا رسول الله بيِّن لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيما العمل اليوم أفيما جفت به

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ٣، ص١١.

(٢) المخصرة ـ بكسر الميم ـ ما أخذه الإنسان بيده واختصره من عصا صغيرة وعكاز صغير وغيرهما، ونكس ـ بتخفيف الكاف وتشديدها ـ لغتان فصيحتان أى خفض رأسه، ونكث أى خط خطًا يسيرًا مرة بعد مرة.

الأقلام وجرت به المقادير أم فيما نستقبل؟

وقال رجل: يا رسول الله أَعُلِمَ أهل الجنة من أهل النار؟ قال: نعم. قال: ففيم يعمل العاملون؟

وجاء رجلان من مزينة فقالا يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشىء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟

وكانت إجابة رسول الله ﷺ فى كل الأحوال:

اعملوا فكل ميسر لما خلق له[1]..

* * *

(١) راجع الروايات فى صحيح مسلم بشرح النووى جـ١٦، ص١٨٩، ٢٠٧.

## ملخص القضية

ومع كل هذه التساؤلات والمناقشات لم يكن الموقف يمثل ظاهرة فكرية قلقة ولا اتجاهًا دينيًا متحزبًا، وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى والأمة مجتمعة على صفاء الفهم لكتاب الله وسنة رسوله..

ثم قامت الخلافة الراشدة وبدأت بوادر الخلافات السياسية فى عهد عثمان رضى الله عنه، ودهم الأمة ما دهمها فقتل الخليفة وامتشق الحسام وانقسم المسلمون ووقعت حروب الفتنة الكبرى بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان، ونشأت أحزاب سياسية، ما لبثت أن تحولت إلى فرق دينية بعدما قامت الدولة الأموية، فكان الشيعة والخوارج والمرجئة والجبرية والقدرية والمعتزلة.. وتدخل القدر فى صياغة فكر هذه الفرق وتبلور لكل منها فهم خاص فيه.

**فقضية القدر فى مجملها ذات أفقين:**

ـ أفق العلم الإلهى. ـ أفق التكليف الإنسانى.

حرص البعض على الأفق الأول وغالى فيه حتى نسى صحة التكليف وحتمية المسئولية، وجنح البعض إلى الأفق الثانى وركز عليه حتى غفل عن ضرورة إثبات الكمال المطلق لله عز وجل فى تصريف الكون والكائنات.

وتبلورت الاتجاهات الفكرية حول هذه المذاهب:

الجبرية ـ القدرية الأولى ـ المعتزلة ـ الأشاعرة.

ولا خلاف بين المسلمين قاطبة أن النواميس الكونية فى السماء والأرض كلها مخلوقة لله تعالى سبقت بها إرادته وعلمه..

كذلك فإن الأفعال الاضطرارية للإنسان كنبض قلبه وحركة أمعائه وما قد يدهمه ويقع عليه بلا إرادة منه ولا قدرة معه ـ هى من تقدير الله وخلقه..

ولا تكليف على إنسان فى هذين النوعين ولا مسئولية عليه حيالهما ولا يمدح أو يذم بسببهما. ومحل النزاع هو أفعال الإنسان الاختيارية والتى تنشأ عن إرادة من العبد وتصحبها قدرة منه عليها، والتى هى الأمر والنهى فى التشريعات الإلهية، هنا نشأ الخلاف، واحتدم الجدل وتنازعت الفرق وتعددت..

# القضية الثالثة

## الإمامة والخلافة

- همسات حول الوفاة والإمامة.
- وفاة الرسول ﷺ.
- مؤتمر السقيفة.
- الفتنة الكبرى.

أ- خلافة عثمان بن عفان.

ب- خلافة على بن أبى طالب.

## همسات حول الوفاة والإمامة

استشعر الناس قرب وفاة رسول الله ﷺ خلال حجة الوداع، فقد كان يقول لهم: خذوا عنى مناسككم فلعلى لا أحج بعد عامى هذا، وكان يقول فى خطبه يومئذ: اللَّهم هل بلغت.. اللهم فاشهد.. ونزلت سورة النصر ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ...**﴾ وقد قال ابن عباس فى تفسيرها: هو أجل رسول الله ﷺ نعى إليه..

وقبيل الوفاة بخمسة أيام خطب رسول الله ﷺ فقال:

إن الله خيّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله..

فبكى أبو بكر رضى الله عنه، فعجب الصحابة لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله..

فكان رسول الله هو المخيَّر وكان أبو بكر أعلمهم..

وثبت أن الرسول ﷺ قال لابنته فاطمة الزهراء سرًا:

«إن جبريل كان يعارضنى بالقرآن فى كل سنة مرة، وإنه عارضنى به العام مرتين، وما أرى[1] ذلك إلا لاقتراب أجلى.. فاتقى الله واصبرى فنعم السلف أنا لك».

وقد تهامس الناس فيمن يخلف رسول الله ﷺ فى إمامته للمسلمين وسياسة الأمة..

ففى الصحيح أن على بن طالب خرج من عند رسول الله ﷺ فى وجعه الذى توفى فيه فقال الناس: يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئًا، فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا، وإنى والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا، إنى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت..

اذهب بنا إلى رسول الله فلنسأله فيمن هذا الأمر؟ إن كان فينا علمنا ذلك وإن

(١) أرى ـ بفتح الألف ـ بمعنى أعلم، وبضمها بمعنى أظن.

كان فى غيرنا علمناه فأوصى بنا.

فقال على: إنا والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده، وإنى والله لا أسألها رسول الله ﷺ.

ومعنى كلمة العباس: «أنت عبد العصا». أنك ستكون تابعًا لغيرك وأن النبى ﷺ أشرف على الموت..

والمراد بهذا الأمر الإمارة والإمامة والخلافة.

وهناك حديث اختلفت الفرق حوله وتنازعت فى دلالته، فقد أخرج البخارى فى صحيحه بسنده عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس: يوم الخميس ما يوم الخميس؟ اشتد برسول الله ﷺ وجعه فقال: ائتونى اكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده أبدًا فتنازعوا..

وفى رواية: هلموا أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده أبدًا فقال عمر: إن رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده، ومنهم من يقول غير ذلك..

فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال النبى ﷺ: قوموا عنى، لا ينبغى عندى التنازع..

وفى رواية: قالوا: ما شأنه يهجر، استفهموه، فذهبوا يردون عنه فقال: دعونى فالذى أنا فيه خير مما تدعوننى إليه»[1]، قال ابن عباس إن الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله ﷺ.

فالشيعة يرون أن الكتاب كان يراد به تنصيب على بن أبى طالب والنص على إمامته وخلافته..

وكثير من العلماء يرون أن الكتاب كان يراد به أبو بكر بدلالة نصوص أخرى مثل:

١ـ حديث البخارى «لقد هممت أن أرسل إلى أبى بكر وابنه فأعهد أن يقول

---

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب العلم وكتاب الجهاد وكتاب الجزية وكتاب المغازى وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، بأرقام ١١٤، ٣٠٥٣، ٣١٦٨، ٤٤٣١، ٤٤٣٢، ٥٦٦٩، ٧٣٦٦.

القائلون أو يتمنى متمنون. . ثم قال: يأبى الله ويأبى المؤمنون إلا أبا بكر.

٢ـ حديث البخارى: أتت امرأة إلى رسول الله ﷺ فأمرها أن ترجع فقالت: أرأيت إن جئت فلم أجدك ـ كأنها تقول الموت ـ قال: إن لم تجدينى فأت أبا بكر.

٣ـ حديث البخارى أن رسول الله ﷺ قال فى مرضه:

مروا أبا بكر فليصل بالناس، فقالت عائشة: إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه فلو أمرت غير أبى بكر. .

تقول عائشة: والله ما بى إلا كراهة أن يتشاءم الناس بأول من يقوم فى مقام رسول الله ﷺ، فراجعته مرتين أو ثلاثًا فقال عليه الصلاة والسلام:

ليصل بالناس أبو بكر فإنكن صواحب يوسف.

٤ـ خطب رسول الله ﷺ قبيل وفاته بأيام فقال:

إن أمَنّ الناس علىّ فى صحبته وماله أبو بكر، لو كنت متخذًا خليلاً غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن خلة الإسلام ومودته لا يبقى فى المسجد باب إلا سُد، إلا باب أبى بكر».

فمن خلال هذه النصوص والمواقف وغيرها يرى هؤلاء أن أبا بكر كان هو المقصود من كتابة الوصية. .

ومع ذلك فإن حديث الكتاب والكتابة يجب أن نفهمه فى إطار عصمة الرسول وعدالة الصحابة وحب آل البيت. : .

فلو أن الأمر من الرسول فى هذا الموقف إلزام حتمى ما تركه، وإلا كان كاتمًا للوحى معاذ الله. .

وقد مكث الرسول ﷺ بعد هذا الموقف أيامًا ولم يجدد الأمر. . بل إن فى الحديث أمرين يدلان على أن أمر الكتابة لم يكن للوجوب، فقد قال النبى ﷺ: قوموا عنى.

وفى الرواية الأخرى لما ذهبوا يستفهمونه قال لهم: دعونى. .

ومقالة عمر بن الخطاب «إن رسول الله قد غلبه الوجع» لا تعنى أكثر من حرصه على راحة الرسول ﷺ والهدوء الواجب فى حضرته، وما جاء فى الرواية الأخرى: ما شأنه يهجر، هو نفى للهذيان والتخليط عن رسول الله ﷺ، أى ما

عهدناه يهجر فهو ﷺ محفوظ بعناية الله من ذلك.

ولما تنازع القوم واختلفوا أمرهم الرسول بالخروج ونبههم إلى شيئين:

**الأول:** «لا ينبغى عندى التنازع، فمقام رسول الله يحتاج إلى خفض الصوت التزامًا بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ...**﴾ [الحجرات: ٢].

**الثانى:** «فالذى أنا فيه خير مما تدعونى إليه» فإن حال الاحتضار يرى فيها الميت ما لا يرى الأحياء حوله ويبشر المؤمن بما أعده الله له، فكيف بحال النبى ﷺ..

ويمكن أن يفهم أمر الكتابة بغير الوصية بالإمامة لأحد من الصحابة، إنها قد تكون الوصية العامة بالدين والمنهج، وحسن الأخوة، والبعد عن الشحناء، والدعوة إلى البر والمعروف، كما فعل رسول الله ﷺ فى خطب الوداع التى كررها فى حجته..

والذى تؤكده روح الشريعة وحكمة التشريع وظواهر نصوص كثيرة أن أمر الخلافة تركه رسول الله ﷺ لاجتهاد المسلمين، وبلا تحديد ملزم أو تكليف حتمى، فالناس أعلم بأمور دنياهم، وما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، والخلافة ليست نبوة وليست حكرًا على فئة، والله لا يجمعه بأحد من الناس نسب.

وما ورد من نصوص تمدح شخصًا أو تذكر فضلاً له أو بلاء حسنًا فى الإسلام فهى من باب المناقب، وما من صحابى إلا وله منقبة، ولا علاقة لهذه المنقبة بخلافة رسول الله ﷺ..

وحين طعن عمر بن الخطاب وقتله أبو لؤلؤة المجوسى، قيل له استخلف فقال: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير منى - يعنى أبا بكر.. وإن أترك فقد ترك من هو خير منى - يعنى رسول الله..

* * *

## وفاة الرسول ﷺ

بلّغ سيدنا محمد الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة وجاهد فى الله حق جهاده. . وكان فى مجتمع المسلمين. النبى الذى يوحى إليه، والإمام الذى يصون الأمة ويرعى شئونها، والقائد الأعلى للجيش يقود المعارك ويتقدم الجنود، والقاضى الذى يحكم بين الناس فيما شجر بينهم، والمفتى الذى يلجأ الناس إليه فى أمور دينهم ووقائع حياتهم. .

ثم هو ﷺ مولى كل مسلم ومسلمة، يعود المريض ويُواسى المكلوم ويصل الرحم ويعطى عطاء من لا يخشى الفقر، ويمازح أصحابه، ويتفقد أحوالهم فى السراء والضراء. .

وظل رسول الله ﷺ على ذلك حتى جاءه اليقين، وكانت آخر كلماته وهو يفارق الدنيا:

- الصلاة وما ملكت أيمانكم. .
- لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.
- اللهم الرفيق الأعلى.
- أسأل الله الرفيق الأعلى الأسعد مع جبريل وميكائيل وإسرافيل.
- مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا. .

لقد مرض رسول الله مرض الوفاة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من صفر فى العام الحادى عشر للهجرة، وتوفى يوم الإثنين لثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، فى اليوم الذى قدم فيه المدينة مهاجرًا، واستكمل رسول الله ﷺ فى هجرته عشر سنين كاملة[1]. .

وعندما شاع خبر الوفاة انقسم الناس ما بين مصدق ومكذب، حتى قام عمر

---

(١) هذا هو المشهور عند أهل العلم وذكره ابن إسحاق والواقدى وجزم به ابن سعد راجع (البداية والنهاية) لابن كثير ص٢٥٤، جـ٥، ط مكتبة المعارف ـ بيروت.

ابن الخطاب يخطب الناس ويتوعد من قال مات بالقتل والقطع، ويقول: لا يموت رسول الله حتى يفنى الله المنافقين..

فأقبل أبو بكر الصديق ودخل حجرة السيدة عائشة، وكشف عن وجه رسول الله ﷺ وأكب عليه يقبله ثم بكى وقال:

بأبى أنت وأمى يا رسول الله..

ما أطيبك حيًا وميتًا..

ثم صعد المنبر وخطب الناس قائلاً:

من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات..!!

ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت..!!

ثم قرأ هذه الآية: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرفت أنه الحق، فعُقِرت[١] حتى ما تُقلُّنى رجلاى، وحتى هويت إلى الأرض، وعرفت حين سمعته تلاها أن رسول الله ﷺ قد مات..

إن إدراك العام يختلف عن إدراك الخاص، فإدراك الشخص لجمال النساء يختلف عن إدراكه لجمال امرأة بعينها..

وإن إمكان الشىء غير وقوعه، فمفاجأة الواقع أكثر أثرًا من العلم بإمكانه، فكل الناس يدركون أنهم ميتون لكن وقوع الموت يترك ألـمًا أشد وحزنًا أعمق..

* * *

(١) عقرت ـ بضم العين وكسر القاف ـ أى هلكت، وفى رواية بفتح العين أى دهشت وتحيرت.

## مؤتمر السقيفة

فور تأكد خبر الوفاة اجتمع الأنصار فى سقيفة[١] بنى ساعدة يتشاورون فى تنصيب خليفة منهم، وأرادوا بيعة سعد بن عبادة سيد الخزرج. وبلغ الخبر المهاجرين فتحرك أبو بكر وعمر وأبو عبيدة إلى السقيفة، وجرت هناك مجادلات، وقدمت اقتراحات، وسيقت مبررات.

تكلم خطيب الأنصار قائلاً:

نحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط نبينا، وقد دفت دافة[٢] منكم تريدون أن تختزلونا من أصلنا وتحصنونا من الأمر..

وتكلم أبو بكر قائلاً:

ما ذكرتم من خير فأنتم أهله، وما تعرف العرب هذا الأمر[٣] إلا لهذا الحى من قريش، هم أوسط العرب نسبًا ودارًا.. وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين أيهما شئتم، وأخذ بيد عمر وأبى عبيدة..

فقام الخباب بن المنذر فقال:

أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب[٤]، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش..

فكثر اللغط وارتفعت الأصوات، فقام عمر بن الخطاب وقال: أبسط يدك يا أبا بكر أبايعك..

وحصلت هجمة كاد أن يموت فيها سعد بن عبادة، فقال قائل من الأنصار:

---

(١) السقيفة: مكان للاجتماعات المهمة.

(٢) جماعة.

(٣) أى الرئاسة والإمارة.

(٤) يصف نفسه بالدهاء والذكاء وحسن الرأى، والجذيل تصغير ـ جذل ـ بكسر الجيم وسكون الذال ـ وهو فى الأصل عود ينصب للإبل الجربى لتحتك به، والعذيق تصغير العذق ـ بفتح فسكون ـ وهو النخلة بحملها، والمرجب اسم مفعول من قولهم رَجَّب النخلة ترجيبًا إذا بنى حولها دائرة تعتمد عليها إذا كثر ثمرها حتى لا تسقط.

قتلتم سعدًا.

فقال عمر: قتل الله سعدًا..

وتكلم أبو بكر فلم يترك شيئًا أنزل فى الأنصار ولا ذكره رسول الله ﷺ من شأنهم إلا ذكره وقال:

لقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال: لو سلك الناس واديًا وسلكت الناس واديًا لسلكت وادى الأنصار..

ولقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال - وأنت قاعد -: قريش ولاة هذا الأمر، فبر الناس تبع لبرهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم.. فقال سعد بن عبادة: صدقت، نحن الوزراء وأنتم الأمراء.

فتمت بيعة أبى بكر من الحاضرين المهاجرين والأنصار، وكان ذلك مساء يوم الاثنين، يوم وفاة الرسول ﷺ.

وقد وصف عمر بن الخطاب إقدامه على بيعة أبى بكر أثناء معمعة النقاش بأنها فلتة وقى الله المسلمين شرها وقال: أما والله ما وجدنا فيما حضرنا أمرًا هو أرفق من مبايعة أبى بكر، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة، فإما أن نبايعهم على ما لا نرضى، وإما أن نخالفهم فيكون فساد، فمن بايع أميرًا من غير مشورة المسلمين فلا بيعة له، ولا بيعة للذى بايعه، وإنهما تغرة[١] يجب أن يقتلا[٢]..

* * *

**● موقف على بن أبى طالب:**

تخلف آل بيت النبى ﷺ عن اجتماع السقيفة لملازمتهم الجسد الشريف..

ولما تمت بيعة أبى بكر فى السقيفة، اجتمع الناس صبيحة يوم الثلاثاء فى المسجد لبيعة الصديق بيعة عامة من المهاجرين والأنصار قاطبة..

وحين صعد أبو بكر المنبر نظر فى وجوه القوم فلم ير الزبير بن العوام فدعا به فجاء فقال له:

---

(١) تغرة: أى هما مخادعان يريدان الفتنة.

(٢) راجع الروايات فى البداية والنهاية لابن كثير ص٢٤٥، جـ٥، ط مكتبة المعارف - بيروت.

ابن عمة رسول الله وحواريه أردت أن تشق عصا المسلمين؟! فقال الزبير: لا تثريب يا خليفة رسول الله وقام فبايعه.

ثم نظر أبو بكر فلم ير على بنى أبى طالب، فدعا به فجاء فقال له: ابن عم رسول الله وختنه على ابنته أردت أن تشق عصا المسلمين؟!

فقال على: لا تثريب يا خليفة رسول الله وقام فبايعه.

وقد روى تلك البيعة من على بن أبى طالب - ابن خزيمة والبيهقى..

ثم حدثت خلافات بين الصديق وفاطمة الزهراء بشأن ميراثها من أرض خيبر وفدك[1]، فقد روى الصديق حديث رسول الله ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة، وإنما يأكل آل محمد من هذا المال».

ولم تكن السيدة فاطمة هى وحدها الوارثة لرسول الله ﷺ فهناك أزواجه وعمه العباس فحجبهم جميعًا أبو بكر بهذا الحديث..

وظلت السيدة فاطمة على رأيها فى وجوب الميراث ثم اقترحت على أبى بكر أن يجعل على بن أبى طالب مشرفًا على هذه الأرض ينظر فى غلتها وثمرتها وينفق منها على من يستحق، فرفض أبو بكر بناء على أنه خليفة رسول الله والقائم بالأمر بعده فهو أحق بالإشراف على أموال المسلمين والتصرف فيها..

فأحدث ذلك غضبًا شديدًا للسيدة فاطمة الزهراء فاعتزلت الصديق حتى توفيت بعد ستة أشهر من انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وطاوعها فى ذلك زوجها على بن أبى طالب، وآثر الوقوف بجانبها مراعاة لخاطرها، حتى إنه دفنها ليلاً دون أن يُعلم أبا بكر..

فماذا حدث بعد وفاة السيدة فاطمة رضى الله عنها؟

يسوق الإمام البخارى هذه الرواية:

«وكان لعلى من الناس وجه حياة فاطمة، فلما توفيت استنكر علىٌّ وجوه الناس، فالتمس مصالحة أبى بكر ومبايعته، ولم يكن بايع تلك الأشهر.

فأرسل إلى أبى بكر: ائتنا ولا يأتنا معك أحد، وكره أن يأتيه عمر، لما علم من شدة عمر.

---

(١) فدك قرية شمال المدينة كانت لليهود وسلموها للرسول دون قتال.

فقال عمر: والله لا تدخل عليهم وحدك.

قال أبو بكر: وما عسى أن يصنعوا بى، والله لآتينهم.

فانطلق أبو بكر

قال على: إنا قد عرفنا فضلك وما أعطاك الله، ولم ننفس عليك خيرًا ساقه الله إليك، ولكنكم استبددتم بالأمر، وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله ﷺ أن لنا فى هذا الأمر نصيبًا..

فلم يزل علىٌّ يذكر حتى بكى أبو بكر وقال:

والذى نفسى بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلىّ أن أصل من قرابتى..

وأما الذى شجر بينكم فى هذه الأموال فإنى لم آل فيها عن الخير، ولم أترك أمرًا صنعه رسول الله ﷺ إلا صنعته..

فلما صلى أبو بكر الظهر رقى على المنبر فتشهد وذكر شأن علىّ وتخلفه عن البيعة وعذره بالذى اعتذر به.

وتشهد علىّ فعظم حق أبى بكر وذكر فضيلته وسابقته، وحدث أنه لم يحمله على الذى صنع نفاسة على أبى بكر، ثم قام إلى أبى بكر فبايعه.

فأقبل الناس على علىٍّ بن أبى طالب فقالوا: أحسنت، وكان الناس إلى على قريبًا حين راجع الأمر بالمعروف».

وإذا كان حديث البخارى هذا ينص على أن عليًا لم يبايع إلا بعد وفاة السيدة فاطمة وأنه اعتذر عن تخلفه هذه المدة فإن العلماء يرون أن المثبت مقدم على النافى وأن حديث ابن خزيمة والبيهقى مثبت فيقدم على النافى..

وأكد الإمام ابن كثير أن بيعة على بن طالب للصديق تمت فى اليوم الأول أو الثانى للوفاة وأن هذا حق لأن عليًا لم يفارق الصديق فى وقت من الأوقات ولم ينقطع فى صلاة من الصلوات خلفه، وأنه خرج مع الصديق إلى ذى القصة[1] يريد قتال المرتدين[2]..

وأيًا ما كان، وسواء اثبتنا البيعة الأولى عقب اجتماع السقيفة أو اكتفينا بالبيعة

---

(١) موقع على بعد مرحلة من المدينة.

(٢) البداية والنهاية ص٢٤٩، جـ٥.

الثانية بعد وفاة السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها فإن الذى لا مرية فيه أن على ابن أبى طالب رضى الله عنه ظل مع الصديق خلافته ومع الفاروق خلافته ـ نعم الوزير والصاحب والناصح، وشارك فى كافة شئون الدولة، ولم يتخلف عن مهمة توكل إليه أو عمل يسند إليه.. ولم تكن مسألة الخلافة محل نقاش أو سبب نزاع منذ وفاة السيدة فاطمة الزهراء، والتقى الجميع على هدف واحد هو بناء الدولة وتثبيت دعائم الحكم الإسلامى ونشر الإسلام فى أرض الله الواسعة..

وعلى المستوى الأسرى فقد تزوج أبو بكر أسماء بنت عميس أرملة الشهيد الطيار جعفر بن أبى طالب، فولدت له محمدًا، فلما توفى أبو بكر تزوجها على ابن أبى طالب وتكفل بمحمد بن أبى بكر ونشأ فى حجره.. فلما آلت الخلافة إلى على بن أبى طالب جعل محمد بن أبى بكر واليًا على مصر، لكن معاوية بن أبى سفيان بعث عمرو بن العاص فاستولى على مصر وقتل محمد بن أبى بكر وصلبه..

وتزوج عمر بن الخطاب أم كلثوم الكبرى بنت على بن أبى طالب من زوجه السيدة فاطمة الزهراء، فولدت له زيدًا ورقية وقيل فاطمة..[1].

* * *

(١) راجع كتاب (المعارف) لابن قتيبة المتوفى ٢٧٦هـ، ص١٠١، ١٠٧ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت، وكتاب (البداية والنهاية) لابن كثير ص١٣٩، ص٣١٩، جـ٧، ط مكتبة المعارف ـ بيروت.

## الفتنة الكبرى

### أ ـ خلافة عثمان بن عفان:

التقى شمل المسلمين فى عهد الشيخين أبى بكر وعمر، وقامت الخلافة الراشدة تفتح القلوب والعقول وتبسط النور والهداية فى كل مكان وتحركت كتائب الإسلام لفتوحات العراق والشام، وفجأة قام أبو لؤلؤة المجوسى بطعن عمر وهو قائم يصلى فمضى عمر بن الخطاب شهيدًا بعد أن جعل الأمر بعده شورى فى ستة نفر هم: عثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف..

وجعل ابنه عبد الله بن عمر يحضر مجلس الشورى يبدى النصيحة ويرجح عند الانقسام ولا يتولى شيئًا..

وأوصى أن يصلى بالناس صهيب الرومى ثلاثة أيام حتى تنقضى الشورى ويختار الخليفة..

انتهى الأمر باختيار عثمان بن عفان خليفة وإمامًا للمسلمين فى بداية العام الرابع والعشرين للهجرة..

ولقد لخص الإمام الشهرستانى الموقف فى خلافة عثمان رضى الله عنه فقال: انتظم الأمر، واستمرت الدعوة فى زمانه، وكثرت الفتوح، وامتلأ بيت المال، وعاشر الخَلْق على أحسن الخُلق، وعاملهم بأبسط يد.

غير أن أقاربه من بنى أمية قد ركبوا نهابر[1] فركبته وجاروا فجير عليه، ووقعت فى زمانه اختلافات كثيرة، وأخذوا عليه أحداثًا، كلها محالة[2] على بنى أمية.

منها رده الحكم بن أمية إلى المدينة بعد أن طرده رسول الله ﷺ، وكان يسمى طريد رسول الله[3]، وبعد أن تشفع إلى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما أيام

---

(١) نهابر: مهالك، جمع نهبورة بضم النون فيهما.

(٢) محالة أى محمولة ومنسوبة.

(٣) أسلم الحكم يوم فتح مكة ثم كان يفشى سر رسول الله فلعنه وطرده إلى بطن (مكان بالطائف) =

خلافتهما فما أجاباه إلى ذلك، ونفاه عمر من مقامه باليمن أربعين فرسخًا.

ومنها نفيه أبا ذر إلى الربذة[١].

وتزويجه مروان بن الحكم بنته وتسليمه خمس غنائم أفريقية له وقد بلغت مائتى ألف دينار.

ومنها إيواؤه عبد الله بن سعد بن أبى السرح، وكان رضيعه، بعد أن أهدر النبى ﷺ دمه، وتوليته إياه مصر بأعمالها[٢].

وتوليته عبد الله بن عامر[٣] البصرة حتى أحدث فيها ما أحدث إلى غير ذلك مما نقموا عليه..»[٤].

**وقد اشتدت حملة العصيان والتمرد على الخليفة لأسباب أخرى منها:**

١- عملية تزوير الرسائل باسم الخليفة وباسم كبار الصاحبة، فقد وجد المصريون وهم راجعون إلى بلادهم بريدًا يحمل رسالة على لسان الخليفة يأمر واليه على مصر عبد الله بن سعد بن أبى السرح بقتل طائفة منهم وصلب آخرين، وقطع أيدى جماعة وأرجلهم..

ولما رجعوا إلى عثمان قال: والله لا كتبت، ولا أمليت، ولا دريت بشىء..

كما زورت كتب على لسان الصحابة بالمدينة مثل على بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام يدعون الناس من الأمصار لقتال عثمان ونصر الدين وأن ذلك أكبر الجهاد..

---

= ثم أدخله عثمان وأعطاه مائة ألف درهم وكان للحكم واحد وعشرون ابنًا وثمانى بنات.. (راجع المعارف لابن قتيبة ص١٩٩).

(١) مكان شرقى المدينة، وكان أبو ذر يفتى بحرمة من يدخر فوق قوته ويوجب التصدق بالفضل من المال.

(٢) أسلم عبد الله بن سعد وكتب الوحى ثم ارتد ولحق بمكة مشركًا، وفى عام الفتح جاء إلى عثمان ابن عفان (أخيه لأمه من الرضاعة) فاستأمن له فأمنه الرسول ﷺ وشارك بعد ذلك فى فتح مصر وبلاد إفريقيا.

(٣) هو ابن خال عثمان، ولاه البصرة بعد عزل أبى موسى الأشعرى، وولاه بلاد فارس بعد عزل عثمان بن أبى العاص، وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة.

(٤) الملل والنحل للشهرستانى، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل ص٢٤ ط دار الفكر - بيروت.

٢ـ تولى كبر الأحزاب والبغاة رجل يهودى حاقد اظهر الإسلام هو عبد الله بن سبأ، أحدث بدعًا قولية وفعلية، وذهب إلى مصر وافتتن به كثير من أهلها وهو القائل بأن على بن أبى طالب خاتم الأوصياء وهو أحق بالإمارة من عثمان، وأزكى نار الفتنة فى الأمصار.

ونتيجة هذه الأحداث كلها جاءت المأساة الأليمة ووقعت الفتنة الكبرى فقد زحف على المدينة البغاة من كل جانب، من مصر والكوفة والبصرة، وحاصروا الخليفة فى بيته، ومنعوا عنه الطعام والماء والخروج إلى المسجد، وطالبوه بأن يعزل نفسه أو يسلم إليهم مروان بن الحكم(١) وإلا قتلوه..

وأصر الخليفة على موقفه، وقال ما كنت لأخلع سربالاً سربلنيه الله.

وبالغ فى حماية أقربائه وقال: لو أن بيدى مفاتيح الجنة لأعطيتها بنى أمية حتى يدخلوا عن آخرهم..

ودافع الخليفة عن نفسه وقال:

لم يقتلوننى؟ فإن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث، رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفسًا بغير نفس».

فوالله ما زنيت فى جاهلية ولا إسلام قط، ولا تمنيت بدلاً بدينى منذ هدانى الله، ولا قتلت نفسًا.. فبم يقتلوننى؟!

وأطل عثمان على الناس ونادى على بعض الصحابة وناشدهم الله وقال: ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة ضاق المسجد بأهله فقال: من يشترى هذه البقعة من خالص ماله فيكون فيها كالمسلمين، وله خير منها فى الجنة؟

فاشتريتها من خالص مالى فجعلتها بين المسلمين وأنتم تمنعونى أن أصلى فيه ركعتين..!!

ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة لم يكن فيها بئر يستعذب منه إلا بئر رومة فقال رسول الله ﷺ: من يشتريها من خالص ماله فيكون دلوه فيها كدلاء المسلمين، وله خير منها فى الجنة؟ فاشتريتها من خالص مالى وأنتم تمنعونى

(١) مروان بن الحكم كان كاتب الحكم بين يدى عثمان وحامل أختامه ومستشاره المقرب.

أن أشرب منها . . !!

هل تعلمون أنى صاحب جيش العسرة . .

قالوا: اللهم نعم .

لكن القوم البغاة أحكموا الحصار، وأغلقت المدينة أبوابها، ولزم كثير من الصحابة بيوتهم، وفى يوم الجمعة لثمانى عشر ليلة خلفت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة وبعد ما يقرب من أربعين يومًا من الحصار اقتحم ثلاثة عشر رجلاً منهم محمد بن أبى بكر دار الخليفة، أحرقوا بابها ووصلوا إليه وهو صائم جالس والمصحف بين يديه، فشجوا رأسه وشدوا لحيته وكسروا أضلاعه وشقوا بطنه وقطعوا حلقه، وقتلوه شر قتلة .

وعندما حاولت امرأته نائلة بنت الفرافصة الكلبية الدفاع عنه قطعوا أصابعها، كما قتلوا غلامين لعثمان وألقوا بجثتيهما للكلاب . . وعزموا على أن يدفن عثمان ابن عفان رضى الله عنه فى مقبرة اليهود بلا غسل ولا تكفين لولا تدخل بعض الصحابة فدفن رضى الله عنه خارج البقيع[1] .

* * *

**ب ـ خلافة على بن أبى طالب:**

أسقط فى أيدى الصحابة بعد مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه، ووجدوا أنفسهم فى موقف لم يكن فى الحسبان، فلم يظن ظان أن هؤلاء البغاة مقدمون على تنفيذ جريمتهم . .

وتلفت الصحابة فيمن يقود الدولة ويتولى شئون الرعية، ويحافظ على الثغور، ويرد كيد المتربصين بالإسلام . .

وانقسمت الترشيحات للخلافة، فأراد المصريون مبايعة على بن أبى طالب، وأراد الكوفيون مبايعة الزبير بن العوام، وأراد البصريون مبايعة طلحة بن عبيد الله . كما عرضت الإمامة على سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر . .

وكل هؤلاء يرفضون الإمامة لأن الوقت وقت فتنة، اختلطت فيه الأمور،

(١) وظل الأمر كذلك حتى تولى الحكم معاوية فأزال جدار البقيع وأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حول قبر عثمان حتى اتصلت بمقابر البقيع .

وتكالبت قوى الشر الداخلية، وغلب جهلة الأعراب والرعاع..

وبعد لأى وتردد قبل الخلافة على بن طالب يوم الخميس، الرابع والعشرين من ذى الحجة عام خمسة وثلاثين للهجرة..

وامتنع عن مبايعته طائفة من الأنصار والمهاجرين وذهبوا إلى الشام أو راحوا إلى مكة، وكان أمهات المؤمنين يؤدين الحج فى هذا العام، فلما قتل عثمان أقمن بمكة ورفضن العودة إلى المدينة فرارًا من الفتنة وانتظارًا لما تكشف عنه الأيام..

وخرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخ بدمه، وبه أصابع نائلة امرأة عثمان، وسلم ذلك لمعاوية بن أبى سفيان بالشام فوضعه معاوية على المنبر ودعا الناس إلى الأخذ بثأر عثمان، وظل الناس يتباكون حوله مدة عام..

واشتعلت الخلافات بين على ومعاوية، وانقسم الناس بين الرجلين، ووقعت معركتان راح ضحيتهما آلاف مؤلفة من المسلمين هما: وقعة[1] الجمل وموقعة صفين.

* * *

**• وقعة الجمل:**

شعر الناس بالمأثم لمقتل عثمان، وتجمعوا تحت سادات الصحابة وأمهات المؤمنين وخرجوا من مكة يطالبون عليًا بدم عثمان، لأنه جعل بطانته من البغاة، فهم الذين سيطروا على المدينة بعد مقتل عثمان، وهم الذين بايعوا عليًا..

قال ابن كثير:

فلما بويع لعلىٍّ وصار حظ الناس عنده ـ بحكم الحال وغلبة الرأى لا عن اختيار منه لذلك ـ رءوس أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان، مع أن عليًا فى نفس الأمر يكرههم، ولكنه تربص بهم الدوائر، ويود لو تمكن منهم ليأخذ حق الله منهم..

ولكن لما وقع الأمر هكذا، واستحوذوا عليه، وحجبوا عنه علية الصحابة، فرّ جماعة من بنى أمية وغيرهم إلى مكة، واستأذنه طلحة والزبير فى الاعتمار فأذن لهما فخرجا إلى مكة وتبعهم خلق كثير وجم غفير.. وكان علىٌّ لما عزم على قتال

(١) الوقعة: صدمة الحرب.

أهل الشام قد ندب أهل المدينة إلى الخروج معه فأبوا عليه، فطلب عبد الله بن عمر بن الخطاب وحرضه على الخروج معه فقال: إنما أنا رجل من أهل المدينة، إن خرجوا خرجت على السمع والطاعة[١]، ولكن لا أخرج للقتال فى هذا العام.

ثم تجهز ابن عمر وخرج إلى مكة، وقدم إلى مكة أيضًا فى هذا العام يعلى بن أمية من اليمن، وكان عاملاً عليها لعثمان، ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم.

وقدم لها عبد الله بن عامر من البصرة، وكان نائبها لعثمان، فاجتمع فيها خلق من سادات الصحابة وأمهات المؤمنين[٢].

واستقر رأى أهل مكة عقب خروجهم - على الذهاب إلى البصرة لجمع العدة والعتاد بعد أن كانوا عازمين على الذهاب إلى المدينة..

وهنا تخلفت أمهات المؤمنين عن مواصلة الرحلة وبقيت السيدة عائشة وحدها تقود الرجال وتحض على المسير وتسعى إلى القصاص من قتلة عثمان..

وحملت السيدة عائشة فى هودج على جمل اشترى لها بمائتى دينار وقيل بثمانين دينارًا..

ووصل الجمع الغفير الحاشد إلى البصرة، وجرت مشاورات ومراسلات بين علىّ وعائشة وكبار الصحابة، وكاد الأمر ينتهى سلمًا لولا رءوس البغاة والفتنة الذين اندسوا بين هؤلاء وأولئك..

واجتمع مع على بن أبى طالب عشرون ألفًا، ومع عائشة ثلاثون ألفًا، والتقى الجمعان وحمى الوطيس، وقتل الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، وكان لابن السوداء عبد الله بن سبأ وأتباعه قتال مرير، يتعقب، يقدر على قتله، ويحرض على استمرار القتال، ويرفض الصلح والموادعة، ووصلت النبال إلى هودج عائشة حتى أصبح كالقنفذ، وتعمد البغاة إصابة جملها، وكلما أخذ بخطامه رجل أثخنوه بالنبال وقتلوه، ثم عقر الجمل وانهزم الناس، وحمل هودج عائشة من بين ساحة

(١) أى إن خرج أهل المدينة وأَبَى عبد الله بن عمر فيكون قد خرج على السمع للإمام والطاعة له، ثم اعتذر عبد الله وأراد تأجيل الخروج للعام القادم.

(٢) البداية والنهاية ص ٢٣٠ جـ٧.

المعركة، وذهبوا بها إلى بيت من بيوت البصرة، وأكرمها على بن أبى طالب وأحاطها بالرعاية وودعها فى عودتها واختار لها مجموعة نسوة يصحبنها، وجعل معها أخاها محمد بن أبى بكر، وقالت السيدة عائشة: يا بنى لا يعتب بعضنا على بعض..

إنه والله ما كان بينى وبين علىّ إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها وإنه على معتبتى لمن الأخيار..

فقال لها على بن أبى طالب: صدقت والله ما كان بينى وبينها إلا ذاك، وإنها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة..

وكانت تلك النهاية يوم السبت، مستهل شهر رجب عام ستة وثلاثين، وكان مجموع القتلى من الفريقين عشرة آلاف، وما لا يحصى من الجرحى..

وقال حارثة بن قدامة السعدى للسيدة عائشة أثناء هذه الوقعة: والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل عرضة للسلاح[1]..

*** 

**• موقعة صفين:**

استحكم معاوية بن أبى سفيان فى أهل الشام، ورفض البيعة لعلى بن أبى طالب حتى يقتص من قتلة عثمان أو يسلمهم له..

واستجمع كل فريق قوته، وخرج علىّ من البصرة إلى الكوفة وواصل مسيرته إلى الشام، والتقى الفريقان فى أوائل ذى الحجة عام ستة وثلاثين، فى مكان يقال له صفين بالقرب من الفرات شرقى بلاد الشام، واحتدم القتال طوال شهر ذى الحجة، ثم تحاجز القوم لما دخل شهر المحرم عام سبعة وثلاثين، رجاء أن تقع بينهم مهادنة تؤول إلى الصلح..

وبدأت المراسلات وتنقل السفراء بين على ومعاوية عدة شهور، وأصر كل فريق على موقعه، وبرزوا للقتال واشتدت المعركة.. وكان بجوار علىّ مائة وخمسون ألفًا من أهل العراق، وبجوار معاوية مثل هذا العدد من أهل الشام، وكل من هؤلاء يحرص على القتال ويحث على الصبر ويتلو آيات القرآن المجيد..

(١) راجع تفاصيل الروايات والأحداث فى البداية والنهاية لابن كثير ص٢٣٠، ٢٤٧، جـ٧.

وقال عمار بن ياسر يومئذ ـ وكان من أنصار علىّ ـ: أيها الناس اقصدوا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يبتغون دم عثمان، ويزعمون أنه قتل مظلومًا، والله ما قصدهم الأخذ بدمه ولا الأخذ بثأره، ولكن القوم ذاقوا الدنيا واستحلوها، واستمروا الآخرة فقلوها.

وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم وشهواتهم.

ولم يكن للقوم سابقة فى الإسلام يستحقون بها طاعة الناس لهم ولا الولاية عليهم.

ولا تمكنت من قلوبهم خشية الله التى تمنع من تمكنت من قلبه عن نيل الشهوات، وتعقله عن إرادة الدنيا وطلب العلو فيها، وتحمله على اتباع الحق والميل إلى أهله.

فخدعوا أتباعهم بقولهم «إمامنا قتل مظلومًا» ليكونوا بذلك جبابرة ملوكًا، وتلك مكيدة بلغو بها ما ترون، ولولا ذلك ما تبعهم من الناس رجلان، ولكانوا أذل وأخس وأقل، ولكن قول الباطل له حلاوة فى أسماع الغافلين.

فسيروا إلى الله سيرًا جميلاً واذكروا الله ذكرًا كثيرًا. . »[1].

وتمايلت كفة النصر مرة لعلى ومرة لمعاوية حتى جاءت لحظة أوشكت أن تؤدى بفريق الشام وتجعل الغلبة للعراقيين، فاقترح عمرو بن العاص على معاوية أن يرفع جنده المصاحف ويدعوا فريق على بن أبى طالب إلى تحكيم كتاب الله، فإن أجابوا كلهم هدأ القتال، وإن اختلفوا فشلوا وذهبت ريحهم. .

وعرف على بن أبى طالب أنها الخدعة وقال:

عباد الله، امضوا إلى حقكم وصدقكم وقتال عدوكم.

فإن معاوية وعمرو بن العاص، وابن أبى معيط، وحبيب بن مسلمة، وابن أبى السرح، والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم، صحبتهم أطفالاً، وصحبتهم رجالاً، فكانوا شر أطفال وشر رجال. .

(١) البداية والنهاية ص٢٦٧ جـ٧، وكان عمار من المعارضين لعثمان، وقاتل فى صفوف علىّ وقد جاوز التسعين عامًا وقتلته الفئة الباغية كما ثبت فى الحديث الشريف.

ويحكم، والله إنهم ما رفعوها، إنهم يقرأونها ولا يعملون بما فيها، وما رفعوها إلا خديعة ودهاء ومكيدة..

فقالوا له: ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله.

فقال لهم: إنى إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم الكتاب، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم به، وتركوا عهده ونبذوا كتابه.

فقال له مسعر بن مذكى التميمى، وزيد بن حصين الطائى فى عصابة معهما من القراء الذين صاروا بعد ذلك خوارج:

يا على أجب إلى كتاب الله إذا دعيت إليه، وإلا دفعناك برمتك إلى القوم، أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفان، إنه غلبنا أن يعمل بكتاب الله فقتلناه، والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك.

قال: فاحفظوا عنى نهيى إياكم، واحفظوا مقالتكم لى، أما أنا فإن تطيعونى فقاتلوا، وإن تعصونى فاصنعوا ما بدا لكم..»[1].

وأصر القوم على التحكيم والموادعة، لأن القتال أجهز على الفريقين، فقد ذكر المؤرخون أن مجموع القتلى بلغ سبعين ألفا على مدى سبعة أشهر أو تسعة أشهر.. وقال الزهرى: بلغنى أنه كان يدفن فى القبر الواحد خمسون نفسًا..!!

وأخيرًا تم اختيار أبى موسى الأشعرى ممثلاً للعراقيين، وعمرو بن العاص ممثلاً للشاميين، واجتمع الحكمان وانتهت المشورة بينهما إلى الاتفاق إلى خلع كل من على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان، وترك الأمر شورى بين المسلمين..

وجاء الحكمان معًا إلى مجتمع الناس، وتقدم أبو موسى الأشعرى، فأعلن خلع على ومعاوية، ثم تقدم عمرو بن العاص وأكد خلع على وثبت صاحبه معاوية..

فاستعظم الناس ما حدث، وتفرقوا أيدى سبأ وتمزق جيش على بن أبى طالب، وخرج عليه جماعة القراء الذين هم الخوارج فيما بعد وقالوا: لا حكم إلا لله.

فجعل علىّ يقول: هذه كلمة حق يراد بها باطل..

وتفاقم الشر وعظم الفساد، وقام الخوارج بسفك الدماء وقطع السبيل، وعاثوا

(١) البداية والنهاية لابن كثير ص٢٧٤، جـ٧.

بين المسلمين فسادًا..

ومن سوءات ما ارتكبوه أنهم أسروا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ، ومعه امرأته وهى حامل، فقالوا: من أنت؟

قال: أنا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله، وإنكم روعتمونى.

فقالوا: لا بأس، حدثنا ما سمعت من أبيك.

فقال: سمعت أبى يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماش، والماش خير من الساعى».

فاقتدادوه بيده، فبينما هو يسير معهم إذ لقى بعضهم خنزيرًا لبعض أهل الذمة فضربه بعضهم فشق جلده.

فقال له آخر: لم فعلت هذا وهو لذمى؟

فذهب إلى ذلك الذمى فاستجلبه وأرضاه..

وبينما هو معهم إذ سقطت تمرة من نخلة فأخذها أحدهم فألقاها فى فمه، فقال له آخر: بغير إذن ولا ثمن؟ فألقاها ذاك من فمه..

ومع هذا قدموا عبد الله بن خباب فذبحوه، وجاءوا إلى امرأته؟

فقالت: إنى امرأة حبلى، ألا تتقون الله؟!

فذبحوها وبقروا بطنها عن ولدها..!!»[1].

وتتابعت المعارك بين على ومعاوية، وبدأ معاوية ينتقص من ولايات علىّ وولاته، ويقتحم المدن الخاضعة له وأحكم قبضته على كثير من المدن..

ويصور الإمام ابن كثير موقف على بن أبى طالب رضى الله عنه فى هذه الأوقات العصيبة قائلاً:

«كان أمير المؤمنين رضى الله عنه قد تنغصت عليه الأمور، واضطرب عليه جيشه، وخالفه أهل العراق، ونكلوا عن القيام معه، واستفحل أمر أهل الشام، وصالوا وجالوا يمينًا وشمالاً، زاعمين أن الإمرة لمعاوية بمقتضى حكم الحكمين فى خلعهما عليًا وتولية عمرو بن العاص معاوية عند خلو الإمرة عن أحد، وقد كان

(١) البداية والنهاية لابن كثير ص٢٨٨، جـ٧.

أهل الشام بعد التحكيم يسمون معاوية الأمير، وكلما ازداد أهل الشام قوة ضعف جأش أهل العراق.

هذا وأميرهم على بن أبى طالب خير أهل الأرض فى ذلك الزمان، أعبدهم وأزهدهم وأعلمهم وأخشاهم لله عز وجل، ومع هذا كله خذلوه وتخلو عنه حتى كره الحياة وتمنى الموت وذلك لكثرة الفتن وظهور المحن، فكان يكثر أن يقول:

ما يحبس أشقاها، أى ما ينتظر؟ ما له لا يقبل؟

ثم يقول: والله لتخضبن هـذه ـ ويشير إلى لحيتـه ـ من هـذه ـ ويشير إلى هامتـه ـ»[1].

وكانت النهاية أن اتفق الخوارج على التخلص من علىّ ومعاوية وعمرو بن العاص، وبعثوا إلى كل واحد من هؤلاء من يترصد له ويقتله.

فقام عبد الرحمن بن عمرو المعروف بابن الملجم الحميرى بتوجيه ضربة بسيف مسمم إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى سحر يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان عام أربعين من الهجرة..

ومكث رضى الله عنه يوم الجمعة وصباح السبت وتوفى ليلة الأحد..

ونجا معاوية بن أبى سفيان من محاولة اغتياله فلم تكن ضربته قاتلة، ولم يخرج عمرو بن العاص ليلتها فى صلاة الفجر لمرض أَلَمَّ به، فأصابت الضربة نائبه فى الصلاة، خارجة بن أبى حبيبة من بنى عامر فقتل..

وقد حاول البعض البيعة للحسن بن على لكنهم ما لبثوا أن تفرقوا عنه، كما تفرقوا عن أبيه من قبل.. فلم يجد بدًا من التنازل عن الإمارة لمعاوية..

وبذلك طويت صفحة الخلافة الراشدة وأصبحت ملكًا عضوضًا ابتدعه بنو أمية.

وكان الشهرستانى صائبًا حكيمًا عندما قال:

وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة، إذ ما سل سيف فى الإسلام على قاعدة دينية مثلما سل على الإمامة فى كل زمان[2].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ص٣٢٤، جـ٧.

(٢) الملل والنحل ص٢٢.

**ولنا تعليق:**

١ـ إن العصبية الجاهلية التقت مع الحقد اليهودى للكيد للإسلام والمسلمين خلال الفتنة الكبرى. .

فقد كذبوا على السيدة عائشة حين نبحتها الكلاب، فقد مروا فى مسيرهم ليلاً بماء يقال له الحوأب، فلما سمعت عائشة ذلك قالت: ما اسم هذا المكان؟ قالوا: الحوأب، فضربت بإحدى يديها على الأخرى وقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أظنني إلا راجعة.

قالوا: ولم؟ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لنسائه: ليت شعرى أيتكن التى تنبحها كلاب الحوأب؟! ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته وقالت: ردونى، ردونى أنا والله صابحة ماء الحوأب. .

فأناخ الناس حولها يومًا وليلة، وقال لها عبد الله بن الزبير: إن الذى أخبرك أن هذا ماء الحوأب قد كذب[1]. .

وقتلوا الزبير بن العوام بعد ما ألقى السلاح وكرّ راجعًا إلى المدينة، قتله ابن جرموز وهو نائم وقيل وهو يصلى، واجتز رأسه وذهب به إلى على بن أبى طالب عسى أن يحصل له به حظوة عنده، فقال على بن أبى طالب: سمعت رسول الله ﷺ يقول: بشر قاتل ابن صفية بالنار، وأمسك بسيف الزبير وقال: إن هذا السيف طالما فرج الكرب عن وجه رسول الله ﷺ. . .

واستباح عبد الله بن سبأ ـ وكان فى صفوف علّى ـ كل شىء، وقال لأصحابه: إن عيركم فى خلطة الناس فإذا التقى الناس فأنشبوا الحرب والقتال بين الناس ولا تدعوهم يجتمعون. .[2]!!

* * *

٢ـ إن دعوى الوصية والنصوص الجلية والخفية لولاية على بن أبى طالب وخلافته هى من الأساطير التى أشبهت الحقائق عند الشيعة. .

(١) جاء الحديث بروايات خرجها أحمد وأبو نعيم بإسناد على شرط الصحيحين، والبزار، ذكر ذلك ابن كثير فى البداية والنهاية جـ٦، ص٢١١، جـ٧، ص٢٣١.

(٢) البداية والنهاية جـ٧، ص٢٣٩.

فلم يكن على بن أبى طالب يومًا ما يعول عليها أو يحتج بها، وقد عرفنا موقفه فى عهد الشيخين أبى بكر وعمر. .

وحين قتل عمر وعهد الأمر بعده لستة يختارون أحدهم وتولى عبد الرحمن بن عوف مهمة استطلاع الرأى واستشارة الناس، وسألهم مثنى وفرادى، سرًا وجهرًا، وخلص إلى النساء المخدرات فى حجابهن، وسأل الركبان والأعراب القادمين إلى المدينة فى مدة ثلاثة أيام بلياليهن فكان اختيار عثمان بن عفان أقرب إلى الإجماع، وبايعه على بن أبى طالب. .

وما يذكره كثير من المؤرخين كابن جرير وغيره من أن عليًا قال لعبد الرحمن:

خدعتنى، وإنك إنما وليته لأنه صهرك، وليشاورك كل يوم فى شأنه، وأن عليًا تلكأ فى مبايعة عثمان حتى قال له عبد الرحمن: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

فقد رده الإمام ابن كثير لمخالفته الصحيح من الأخبار. .[1].

ومع ذلك فسواء قلنا بمبادرة علىّ إلى مبايعة عثمان أو تأخره فلم يكن ذلك مرتبطًا بنص أو مرتكزًا على وصية، وإنما هى وجهات نظر واجتهادات تصيب أو تخطئ. .

وقد ثبت فى الصحيحين أن عليًا رضى الله عنه سئل:

هل عندكم شىء عهده إليكم رسول الله ﷺ لم يعهده إلى الناس؟

فقال: لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهمًا يؤتيه الله عبدًا فى القرآن، وما فى هذه الصحيفة. .

قيل له: وما فى هذه الصحيفة؟

فإذا فيها العقل[2]، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر، وأن المدينة حرام ما بين عير إلى ثور.

وفى الصحيحين أيضًا أن على بن أبى طالب خطب فقال:

من زعم أن عندنا شيئًا نقرأه ليس فى كتاب الله وهذه الصحيفة ـ لصحيفة

(١) البداية والنهاية جـ٧، ص١٤٧.

(٢) العقل: الدية.

معلقة فى سيفه، فيها أسنان الإبل وأشياء من الجراحات[١] ـ فقد كذب..

وفى الصحيفة أيضًا:

المدينة حرام ما بين عير إلى ثور، من أحدث فيها حدثًا، أو آوى محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً، ومن ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواله فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً، وذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلمًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً».

* * *

٣ـ عندما بويع على بن أبى طالب بالخلافة بعد مقتل عثمان، لم تكن تلك البيعة بإجماع الأمة ولا باختيار كبار الصحابة، وإنما بايعته الفئة التى حاصرت المدينة وقتلت عثمان..

ودخلت الأمة فى ساحات القتال وخسرت شبابًا ورجالاً ونساء..

ولم تكن دعوى الوصية أو النصوص الشرعية يحتج بها على رضى الله عنه لنفسه، وقد قال ابن كثير:

«لو كان مع على بن أبى طالب رضى الله عنه نص فلم لا كان يحتج به على الصحابة، على إثبات إمارته عليهم وإمامته لهم؟

فإن لم يقدر على تنفيذ ما معه من النص فهو عاجز، والعاجز لا يصلح للإمارة.

وإن كان يقدر ولم يفعله فهو خائن، والخائن الفاسق مسلوب معزول عن الإمارة.

وإن لم يعلم بوجود النص فهو جاهل..

ثم وقد عرفه وعلمه من بعده (يقصد الروافص)، هذا محال وافتراء، وجهل وضلال..»[٢].

(١) أحكام الجراحات كما قال تعالى: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].

(٢) البداية والنهاية جـ٥، ص٢٥٢.

٤ـ إن قضية الإمامة فى الفكر الإسلامى لها جانبان:

أ ـ جانب تاريخى ينبغى التوقف عن الخوض فيه، ونتمثل قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١].

وقوله جل شأنه ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].

ب ـ جانب اجتهادى يتصل بفقه الإمامة فى الإسلام، ويحتاج إلى فطنة ووعى وإخلاص وتجرد لكى نصلح واقع المسلمين المعاصر ونلتقى على كلمة سواء فى مواجهة الزحف الصليبى اليهودى الحاقد..

إن آراء الفرق والجماعات حول الإمامة لا تخرج عن هذين الجانبين، فلندع ما مضى ولنفكر فيما يجب حاضراً ومستقبلاً، ولنتحاور فيما يصل بنا إلى وحدة الصف والاعتصام بالعروة الوثقى..

* * *



# القضية الرابعة

## الوعد والوعيد

## الوعد والوعيد

الوعد يكون بالخير.

والوعيد يكون بالشر.

والمراد بالوعد والوعيد شرعًا الثواب، والعقاب، اللذان أخبر بهما القرآن الكريم والسنة النبوية جزاء للأعمال البشرية، فقد جاء الثواب مرتبطًا بالعمل الصالح، وجاء العقاب مرتبطًا بالفحشاء والمنكر والبغى..

وكان ثواب الله مضاعفًا، وعقاب الله بقدر المعصية، قال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وثواب الله قد يكون عاجلاً فى الدنيا بركة ونماء ونصرة وتأييدًا، وقد يكون آجلاً وهو الأبقى فى الجنة ونعيمها..

وعقاب الله قد يكون عاجلاً فى الدنيا ضنكًا وشقاء وهزيمة ونكالاً، وقد يكون آجلاً وهو الأبقى فى النار وعذابها..

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

وقال جل شأنه: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وجاءت نصوص شرعية تفيد أن دخول الجنة هو جزاء العمل الصالح، كما فى قوله تعالى: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

ومع ذلك فقد قال رسول الله ﷺ: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل منه ورحمة».

وجاءت نصوص تفيد تخلف الوعيد ودخوله تحت المشيئة، كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ

إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨].

وفى صحيح الحديث أن النبى ﷺ قال:

«يا معاذ: هل تدرى ما حق الله على عباده، وما حق العباد على الله؟ قال معاذ: الله ورسوله أعلم، قال عليه الصلاة والسلام: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا وحق العباد على الله ألاَّ يعذب من لا يشرك به شيئًا.

قال معاذ: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا».

ووردت نصوص شرعية تثبت المآكل والمشارب فى النعيم والجحيم، كما فى قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥].

وأكدت النصوص أن هذا الوعد وذلك الوعيد يستحقه أصحابه على الخلود قال تعالى فى أصحاب الجنة: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [الكهف: ١٠٨].

وقال تعالى فى أصحاب النار: ﴿ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٣].

واختلف الفرقاء فى فهم الوعد والوعيد وتوالت تساؤلات:

- هل يجوز تخلف الوعد والوعيد عقلاً وشرعًا أو لا؟
- وهل ثواب الله فضل وعقابه عدل أو أن كليهما فى أصله عدل لا فضل فيه؟
- وهل المراد بالشرك ما يعم الشرك العقدى والشرك العملى أو أنه وقف على الشرك العقدى فقط؟
- وهل الخلود بمعنى المكث الطويل أو أنه المكث الأبدى الذى لا ينقطع ولا يزول؟
- وهل تتحقق آخرية الله تعالى بفناء جميع خلقه فى الدنيا أو فى الدنيا والآخرة معًا؟
- وهل الجزاء الأخروى مادى أو معنوى؟

وساق الفكر الوافد على البيئة الإسلامية مقدمات فكرية التزم بها البعض وحمل عليها نصوص الشرع ودار جدل طويل حول المعاد والجزاء.

هذا وقد خرج المسلمون من معمعة الصراع السياسى حول الإمامة والخلافة مثخنى الجراح، مكلومى القلب، فقد قتل أئمة الصحابة والتابعين، وتقطعت أرحام المؤمنين، ووقف أعلام الأمة مواقف لا يحسدون عليها. . .

وكان الحجاج بن يوسف الثقفى[١] أكثر الناس عدوانًا على المسلمين. . .

وكانت الخوارج أكثر الشيع إرهابًا لمجتمع المسلمين. .

وتوالت المجازر البشرية من الأمويين للعلويين، ثم تولى كبرها العباسيون فتعقبوا كُلاً من الأمويين والعلويين، واستبيحت الدماء واستحلت المحارم، وهدمت الكعبة[٢].

وتساءل الناس عن حكم مرتكب الكبيرة، وما جزاء البغاة المحاربين للإمام؟ وما حكم المتغلب على الحكم؟ وهل للقاتل توبة؟

وتباينت الفرق فى الجواب عن هذه التساؤلات. .

ونستطيع أن نقرر أن مسألة مرتكب الكبيرة والوعد والوعيد فى الفكر الإسلامى نشأت نشأة سياسية، وتداخلت فيها تأثيرات الفكر الوافد، وارتبطت بأحداث تاريخية فات وقتها، وباء بإثمها من باء ومضى شهيدًا من مضى. . وتحتاج منا الآن إلى نظرة إسلامية صافية. .

* * *

(١) توفى الحجاج عام ٩٥هـ وكان واليًا للخليفة الأموى عبد الملك بن مروان على الحجاز مدة ثلاث سنين، ثم على العراق مدة عشرين عامًا.

(٢) رميت الكعبة بالمنجنيق وأحرقت سنة ٦٤هـ أثناء حصار ابن الزبير فى عهد يزيد بن معاوية، ثم هدمها ابن الزبير وأعاد بناءها وأدخل فيها الحجر وجعل لها بابين، ولما قتله الحجاج سنة ٧٣هـ هدم الكعبة وأخرج منها الحجر وسد الباب الغربى.

# القضية الخامسة

## فقه العبادات والمعاملات

- أدلة القرآن الكريم.
- السنة النبوية.
- اجتهاد الصحابة.

## فقه العبادات والمعاملات

من مسائل الاجتهاد التى نشأت على هدى منها مذاهب كثيرة الأحكام العملية فى الإسلام، أو ما يسمى بفقه العبادات والمعاملات، وقد تعددت المذاهب وتباينت، فكان الفقه الشيعى والفقه السنى، وانقسم كل منهما إلى مذاهب.

وعلى سبيل المثال انقسم الفقه السنى إلى مذاهب، أشهرها:

مذهب أبى حنيفة النعمان بن ثابت (٨٠ ـ ١٥٠ هـ).

ومذهب مالك بن أنس (٩٣ ـ ١٧٩ هـ).

مذهب محمد بن إدريس الشافعى (١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ).

ومذهب أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١ هـ).

مذهب داود الظاهرى (٢٠٠ ـ ٢٧٠ هـ).

ولم تكن نشأة المذاهب الفقهية بدعًا من الأمر، بل جاءت امتدادًا لأمور كثيرة فى العهد النبوى منها:

## أولاً: أدلة القرآن الكريم

إن الفهم لأحكام القرآن الكريم يقتضى الإحاطة بعلوم شتى، إذا لم تتوافر لدى المجتهد أدت إلى نشأة الخلاف وتعدد الآراء، وأهم هذه العلوم:

- أسباب النزول.
- فقه اللغة العربية.
- الناسخ والمنسوخ.

فإن معرفة سبب النزول يعين على فهم الأحكام القرآنية، والجهل به يوقع فى الشبه ويدفع إلى النزاع.. وقد وقع فى عهد الصحابة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل قدامة بن مطعون على البحرين فقدم الجارود على عمر فقال: إن قدامة شرب فسكر.

فقال عمر: مَنْ يشهد على ما تقول؟

قال الجارود: أبو هريرة يشهد على ما أقول.

فاستقدم عمر قدامة وقال له: يا قدامة إنى جالدك..

قال: والله لو شربت كما يقولون ما كان لك أن تجلدنى.

قال عمر: ولم؟ قال: لأن الله يقول: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

فقال عمر إنك أخطأت التأويل يا قدامة، إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرم الله.

وفى رواية: لم تجلدنى؟ بينى وبينك كتاب الله.

فقال عمر: وأىَّ كتاب الله تجد ألاَّ أجلدك؟.

قال: إن الله يقول فى كتابه: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ الآية، فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقو وآمنوا وأحسنوا، شهدت مع رسول الله ﷺ بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد..

فقال عمر: ألا تردون عليه قوله؟

فقال ابن عباس: إن هؤلاء الآيات أنزلن عذرًا للماضين وحجة على الباقين، فعذر الماضين بأنهم لقوا الله قبل أن تحرم عليهم الخمر، وحجة على الباقين لأن الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩٢].

فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا فإن الله قد نهى عن أن يشرب الخمر..

قال عمر: صدقت[1].

---

(١) الموافقات فى أصول الشريعة لأبى إسحاق الشاطبى المتوفى ٧٩٠هـ - تحقيق الشيخ عبد الله دراز، وآخرين جـ٢، ص٢٥٩ ط دار الكتب العلمية - لبنان.

وإن فقه اللغة العربية فى حقيقتها ومجازها وأساليب بيانها أمر مهم فى فهم أحكام القرآن لأن القرآن نزل بلسان عربى مبين..

وقد اختلف الفقهاء - تبعًا لذلك - في فهم نصوص القرآن وأحكامه، وعلى سبيل المثال:

قال الله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

فهل المراد بالقرء الطهر أو الحيض؟

ويترتب على ذلك بدء العدة ونهايتها، حتى يمكن مراجعتها فى العدة أو تحل لزوج آخر عقب انتهاء العدة.

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

فقوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾.

هل الغاية داخلة فى الحكم أو لا؟

فالجمهور على أن المرافق داخلة في غسل اليدين وجوبًا.

وقال زفر وداود والطبرى وبعض متأخرى المالكية: غير داخلة في الحكم فلا يجب غسلها..

وقوله: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾.

هل الباء للتبعيض أو للاستيعاب أو للإلصاق..

فذهب الأحناف إلى مسح ربع الرأس وذهب المالكية إلى مسح كل الرأس.

وذهب الشافعية إلى أن الوجوب يتحقق ولو بشعرة..

وقوله: ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾.

هل المراد بالملامسة المعاشرة الزوجية أو اللمس والمس بالبشرة؟ خلاف بين العلماء.

* * *

وإن معرفة الناسخ والمنسوخ يحدد الحكم القائم اليوم، فقد جاءت نصوص شرعية فى الكتاب والسنة تذكر أحكامًا التزم بها الناس فترة زمنية، ثم تلاها أحكام أخرى استقرت فى الشريعة أصبحت بدلاً عن الأحكام السابقة..

* فقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠].

نسخه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

* وقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ [النساء: ٢٤] عقب ذكر المحرمات من النساء.

نسخه قوله ﷺ: «لا تنكح المرأة على عمتها ولا خالتها».

* كان التوجه إلى بيت المقدس فى الصلاة بعد الهجرة بسنة نبوية، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤].

* وصوم عاشوراء كان واجبًا بالسنة ونسخه قوله تعالى فى وجوب صيام شهر رمضان[1] ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

* * *

---

(١) هذا وقد أنكر أبو مسلم الأصفهانى النسخ وجعله تخصيصًا فى عموم الأزمان، ولمزيد من التفاصيل راجع كتاب (السنة مع القرآن) للدكتور سيد أحمد رمضان المسير ص١٥٣، ط. دار الندى.

## ثانيًا: السنة النبوية

السنة النبوية هى المبينة للقرآن الشارحة له، وهى أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته..

وقد اجتهد العلماء فى السنة رواية ودراية، فقسموا السنة إلى ما هو متواتر وما هو آحاد، ووضعوا شروطًا للقبول والرد، والتصحيح والتحسين والتضعيف.. إلخ.

وكان لفقه الحديث أثر كبير فى تعدد المذاهب، فتقسيم الطلاق إلى سنى وبدعى والحكم على البدعى بالوقوع أو عدم الوقوع؛ كان انطلاقًا من فقه حديث ابن عمر عندما طلق زوجته وهى حائض، فقال النبى ﷺ لعمر بن الخطاب: مره فليراجعها ثم ليتركها حتى تطهر، ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء...».

ووقع اجتهاد بشأن حديث فاطمة بنت قيس فى أن الرسول ﷺ لم يجعل لها سكنى ولا نفقة إذ طلقها زوجها البتة، فقد رده عمر وقال: لا نترك كتاب ربنا ولا سنة نبينا لقول امرأة لا ندرى لعلها حفظت أو نسيت..

والذين قبلوا رواية هذا الحديث حملوه على أنها بذّتْ على أهل زوجها بلسانها فكان ذلك تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الطلاق: ١].

فالفاحشة هى فحش القول أو العمل..

ووقع اجتهاد بين العلماء بشأن الحامل المتوفى عنها زوجها متى تنتهى عدتها، فهل عدتها بوضع الحمل طالت المدة أو قصرت لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

ولحديث سبيعة الأسلمية إذ ولدت بعد وفاة زوجها بنصف شهر فأخبرها النبى ﷺ أن قد حلت؟.

أو أن عدة الحامل المتوفى عنها زوجها أبعد الأجلين: عدة الوفاة أربعة أشهر

وعشر أو وضع الحمل؟

**رأى الإمام الشاطبى:**

وقد بحث العلماء كثيرًا من هذه المسائل تحت عنوان: الظنى المعارض لأصل قطعى، فقال الإمام الشاطبى:

وللمسألة أصل فى السلف الصالح، فقد ردت عائشة رضى الله عنها حديث: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه» لقوله تعالى: ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٨، ٣٩].

وردت حديث رؤية النبى ﷺ لربه ليلة الإسراء، لقوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وإن كان عند غيرها غير مردود لاستناده إلى أصل آخر لا يناقض الآية، وهو ثبوت رؤية الله تعالى فى الآخرة بأدلة قرآنية وسنية تبلغ القطع، ولا فرق فى صحة الرؤية بين الدنيا والآخرة.

وردت هى وابن عباس خبر أبى هريرة فى غسل اليدين قبل إدخالهما فى الإناء، استناداً إلى أصل مقطوع به، وهو رفع الحرج وما لا طاقة به عن الدين، فلذلك قالا:

فكيف يصنع بالمهراس[1]؟

وردت أيضًا خبر ابن عمر فى الشؤم [حديث «إنما الشؤم فى ثلاثة: فى الفرس والمرأة والدار»] وقالت: كان رسول الله ﷺ يحدث عن أقوال الجاهلية، لمعارضته الأصل القطعى، أن الأمر كله لله، وأن شيئًا من الأشياء لا يفعل شيئًا، ولا طيرة ولا عدوى..

ثم نقل الإمام الشاطبى اعتبار الفقهاء لهذه المسألة المهمة واعتمادهم عليها فى استنباط الأحكام[2]:

فقال الإمام مالك فى حديث غسل الإناء من ولوغ الكلب سبعًا:

جاء الحديث ولا أدرى ما حقيقته؟ وكان يضعفه ويقول: يؤكل صيده فكيف يكره لعابه؟

---

(١) المهراس: حجر منقور مستطيل يتوضأ منه.

(٢) الموافقات فى أصول الشريعة جـ٣، ص١٤.

وأهمل مالك اعتبار حديث «من مات وعليه صيام صام عنه وليه».

لمنافاته للأصل الكلى القرآنى ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٨، ٣٩].

ولم يعتبر مالك فى الرضاع خمسًا ولا عشرًا للأصل القرآنى ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾ [النساء: ٢٣].

**رأى الإمام السرخسى:**

وقد ناقش الإمام أبو بكر محمد بن أحمد السرخسى هذه المسألة قبل الإمام الشاطبى بثلاثة قرون[1]، وقسم الرواة إلى قسمين: معروف ومجهول، وقسم المعروف إلى نوعين: من كان معروفًا بالفقه والرأى فى الاجتهاد، ومن كان معروفًا بالعدالة وحسن الضبط والحفظ ولكنه قليل الفقه.

فالنوع الأول كالخلفاء الراشدين والعبادلة وزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل، وأبى موسى الأشعرى وعائشة وغيرهم من المشهورين بالفقه من الصحابة رضى الله عنهم، وخبرهم حجة موجبة للعلم الذى هو غالب الرأى، ويبتنى عليه وجوب العمل سواء كان الخبر موافقًا للقياس أو مخالفًا له..

وأما المعروف بالعدالة والضبط والحفظ كأبى هريرة وأنس بن مالك رضى الله عنهما وغيرهما ممن اشتهر بالصحبة مع رسول الله ﷺ والسماع منه مدة طويلة فى الحضر والسفر، لكنهم لم يبلغوا درجة الفقه والرأى كالنوع الأول.. فقد توقف الصحابة فى قبول مرويات هذا النوع إذا عارضت القياس الصحيح.

فقد رد ابن عباس خبر أبى هريرة «توضئوا مما مسته النار» وقال: أرأيت لو توضأت بماء سخن أكنت تتوضأ منه؟! أرأيت لو ادهن أهلك بدهن فأدهنت به شاربك أكنت تتوضأ منه؟!

ورد ابن عباس خبر أبى هريرة «من حمل جنازة فليتوضأ» وقال: أيلزمنا الوضوء فى حمل عيدان يابسة؟!

وردت عائشة خبر أبى هريرة «إن ولد الزنا شر الثلاثة» وقالت: كيف يصح هذا وقد قال الله تعالى: ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨]...

(١) توفى سنة ٤٩٠هـ، وتوفى الشاطبى سنة ٧٩٠هـ.

ولما بلغ عمر رضى الله عنه أن أبا هريرة يروى ما لا يعرف عمر قال: لتكفن عن هذا أو لألحقنك بجبال دوس..

ثم قال الإمام السرخسى كلمة إنصاف وحكمة:

«ولعل ظانًا يظن أن فى مقالتنا ازدراء بأبى هريرة، ومعاذ الله من ذلك، فهو مقدم فى العدالة والحفظ والضبط، ولكن نقل الخبر بالمعنى كان مستفيضًا فيهم.

والوقوف على كل معنى أراده رسول الله ﷺ بكلامه أمر عظيم، فقد أوتى جوامع الكلم على ما قاله: «أوتيت جوامع الكلم واختصر لى اختصارًا».

ومعلوم أن الناقل بالمعنى لا ينقل إلا بقدر ما فهمه من العبارة، وعند قصور فهم السامع ربما يذهب عليه بعض المراد.

وهذا القصور لا يشكل عند المقابلة بما هو فقه لفظ رسول الله ﷺ[١].

فلتوهم هذا القصور قلنا:

إذا انسد باب الرأى فيما روى، وتحققت الضرورة بكونه مخالفًا للقياس الصحيح فلا بد من تركه، لأن كون القياس الصحيح حجة ـ ثابت بالكتاب والسنة والإجماع ـ فما خالف القياس الصحيح من كل وجه فهو فى المعنى مخالف للكتاب والسنة المشهورة والإجماع..»[٢].

* * *

(١) يريد الإمام السرخسى: أن ينبه إلى التفرقة بين نقل الحديث بالمعنى وفقه الحديث، فالنقل بالمعنى محاولة لأداء لفظ مقابل لفظ يساويه فى المعنى، أما فقه الحديث فهو استنباط لأحكام وحكم من لفظ الحديث.

(٢) أصول السرخسى ـ تحقيق أبو الوفا الأفغانى ـ جـ١، ص٣٣٨، ط. دار الكتب العلمية ـ لبنان.

## ثالثا: اجتهاد الصحابة فى العهد النبوى

نزل الوحى بالأحكام الشرعية وأعلنها الرسول ﷺ، والتزم بها الصحابة التزامًا أمينًا.. لكن أثبت الواقع أن الصحابة اجتهدوا فى فهم الحكم الشرعى على عهد رسول الله ﷺ وناقشوا الرسول فى بعض الأحكام وجادلوه فى حكمتها..

ففى صحيح البخارى: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: إنى أجنبت فلم أصب الماء، فقال عمار بن ياسر لعمر بن الخطاب: أما تذكر أنا كنا فى سفر، أنا وأنت، فأما أنت فلم تصل، وأما أنا فتمعكت فصليت، فذكرت ذلك للنبى، فقال النبى ﷺ: كان يكفيك هكذا، فضرب النبى ﷺ بكفيه الأرض ونفخ فيهما ثم مسح بهما وجهه وكفيه.

وفى شرحه لهذا الحديث قال ابن حجر:

«وكأن عمارًا استعمل القياس فى هذه المسألة، لأنه لما رأى أن التيمم إذا وقع بدل الوضوء وقع على هيئة الوضوء، رأى أن التيمم عن الغسل يقع على هيئة الغسل (ولهذا تمعك فى التراب أى تمرغ).

ويستفاد من هذا الحديث وقوع اجتهاد الصحابة فى زمن النبى ﷺ، وأن المجتهد لا لوم عليه إذا بذل وسعه وإن لم يصب الحق، وأنه إذا عمل بالاجتهاد لا تجب عليه الإعادة»[1].

وفى صحيح البخارى عن طريق عكرمة عن ابن عباس:

إن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى ﷺ فقال له النبى ﷺ: البينة أو حد فى ظهرك..

فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة، فجعل النبى ﷺ يقول: البينة أو حد فى ظهرك..

فقال هلال: والذى بعثك بالحق إنى لصادق ولينزلن الله ما يبرئ ظهرى من الحد..

---

(١) فتح البارى جـ١، ص٤٤٤.

فنزل جبريل فأنزل الله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ [النور:٦]، فقرأ حتى بلغ: ﴿إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور:٩].

إن الله تعالى جعل حد القاذف بالزنا، ثمانين جلدة ما لم يأت بأربعة شهود لكن ما الحكم إذا قذف الرجل زوجته أيخرج يلتمس البينة فيكون المشهد قد انتهى أم يسكت ويكون ديوثًا؟

لقد جاء هلال بن أمية يتهم امرأته بالزنا، ولم يكن أمام الرسول بد من بيان حكم القذف العام الذى نزلت به الآيات، وظل الرجل يجادل رسول الله ﷺ حتى نزل الوحى يستثنى الأزواج من هذا الحكم العام ويجعل لهم حكمًا خاصًا هو اللعان..

وأخرج الحاكم وصححه عن عائشة رضى الله عنها قالت:

تبارك الذى وسع سمعه كل شىء، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى علىَّ بعضه، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ وتقول:

يا رسول الله أكل شبابى ونثرت له بطنى، حتى إذا كبر سنى وانقطع ولدى ظاهر منى، اللهم إنى أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا...﴾ [المجادلة:١]. «وهو أوس بن الصامت».

إن الظهار كان طلاقًا بائنًا فى الجاهلية، وكان أوس بن الصامت شيخًا كبيرًا ساء خلقه، فظاهر من امرأته خولة بنت ثعلبة، فجاءت تلتمس الفتوى من رسول الله فقال لها: قد حرمت عليه لكن المرأة كانت فى حاجة إلى زوجها أبى أولادها وعائلها وقالت: إن لى منه صغارًا إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلىّ جاعوا، وظلت تجادل رسول الله ﷺ وتقول إنه لم يذكر طلاقًا، حتى نزل الوحى بحكم جديد هو أن الظهار ليس طلاقًا وإنما فيه كفارة عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكينًا على هذا الترتيب..

* * *

وهكذا فإن اجتهاد العلماء بعد ذلك وتعدد أفهامهم فى ضبط الأحكام وبيان الأصول أمر وارد وواقع، فنشأت المذاهب وتكاثرت الفرق..

# القضية السادسة

## الفكر الوافد

- الغطاء الإسلامى للفلسفة.
- الغطاء الإسلامى للتصوف.
- الترجمة.

## الفكر الوافد

ليس هناك مجتمع على وجه الأرض لم يتأثر بالفكر الوافد، لكن تختلف الشعوب فى مدى هذا التأثر . .

وما كان عرب مكة إلا أثرًا للقاء إسماعيل عليه السلام، القادم من الشام، بامرأة عربية فنشأ العرب المستعربة.

وقد عرف عرب الجاهلية رحلة الشتاء والصيف، ونشأت عبادة الأصنام فى مكة عندما حمل عمرو بن لحى الخزاعى الصنم هبل من الشام وأقامه فيها . .

وقدم أبرهة من الحبشة وأقام كنيسة فى صنعاء، وأراد صرف الناس عن تقديس الكعبة . .

وفى صدر الإسلام أسلم بلال الحبشى وسلمان الفارسى ودخل الناس فى دين الله من كل فج عميق . .

وأشار الرسول ﷺ على زيد بن ثابت أن يتعلم العبرانية أو السريانية فتعلمها زيد فى سبع عشرة ليلة.

وحاول المسلمون الاتصال بأهل الكتاب والرواية عنهم فقال لهم رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم» . .

وعرفت الإسرائيليات طريقها إلى كتب التفسير والحديث . . إلا أن الفكر الوافد بدأ يتغلغل ويتبناه أفراد وجماعات وتشرف عليه مؤسسات الدولة . .

وتبلور الفكر الوافد فى اتجاهين أساسيين هما:

- الاتجاه الفلسفى.
- الاتجاه الصوفى.

وقد اتخذ كل منهما غطاءً إسلاميًا تسرب من تحته وسرى فى عروق الأمة . .

لقد وجد الاتجاه الفلسفى ما يؤيد خطاه ممثلاً فى عناية الإسلام بالعقل ودعوته إلى التأمل ورفعته لشأن العلم والعلماء . .

ووجد الاتجاه الصوفى ما يسانده ممثلاً فى الزهد والعبادة والمجاهدة . .

## الغطاء الإسلامى للفلسفة

تفرد سيدنا محمد ﷺ من بين سائر الأنبياء بأن آية نبوته كتاب يناجى العقل ويناديه صباح مساء: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

وإن أول آيات القرآن نزولاً كانت فتحًا عجبًا واستفتاحًا فريدًا: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥].

وأكد القرآن تأكيدًا قويًا على ملاءمة قضايا الدين لقواعد العقل، واستقامتها على هدى الفطرة النقية، فخاطب أولى الألباب كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩]، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

وأولى العلم كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

والعالمين كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

والمتوسمين أى المتأملين أصحاب الوعى والفهم، كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

ودعا القرآن إلى التأمل واستنهض العقول بأساليب شتى فقال:

﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

﴿فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢].

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ﴾ [النساء: ٨٢].

وقد ناقش علماء المسلمين مسائل الدين وقضاياه على هدى العقل والفطرة،

وانطلقوا من قاعدة أساسية هى أن الأدلة الشرعية لا تتنافى مع مسلمات العقول ولا تصادم الفِطَر ولا تنأى عن العلم.. وقد ساق الإمام الشاطبى خمسة وجوه للدلالة على ذلك هى:

**أحدها:** أنها لو نافتها لم تكن أدلة للعباد على حكم شرعى ولا غيره.

لكنها أدلة باتفاق العقلاء.. فدل أنها جارية على قضايا العقول.. وبيان ذلك أن الأدلة إنما نصبت فى الشريعة لتتلقاها عقول المكلفين حتى يعملوا بمقتضاها من الدخول تحت أحكام التكليف. ولو نافتها لم تتلقها فضلاً أن تعمل بمقتضاها، وهذا معنى قولنا: (لم تكن أدلة للعباد على حكم شرعى ولا غيره).

ويستوى فى هذا الأدلة المنصوبة على الأحكام الإلهية وعلى الأحكام التكليفية.

**الثانى:** أنها لو نافتها لكان التكليف بمقتضاها تكليفًا بما لا يطاق، وذلك من جهة التكليف بتصديق ما لا يصدقه العقل ولا يتصوره، بل يتصور خلافه ويصدقه.

فإذا كان كذلك امتنع على العقل التصديق ضرورة، وقد فرضنا ورود التكليف المنافى للتصديق، وهو معنى تكليف ما لا يطاق وهو باطل حسبما هو مذكور فى الأصول.

**الثالث:** أن مورد التكليف هو العقل، وذلك ثابت قطعًا بالاستقراء التام، حتى إذا فُقد ارتفع التكليف رأسًا، وعُدّ فاقده كالبهيمة المهملة، وهذا واضح فى اعتبار تصديق العقل بالأدلة فى لزوم التكليف.

فلو جاءت على خلاف ما يقتضيه لكان لزوم التكليف على العاقل أشد من لزومه على المعتوه والصبى والنائم، إذ لا عقل لهؤلاء يصدق أو لا يصدق، بخلاف العاقل الذى يأتيه ما لا يمكن تصديقه به.

ولما كان التكليف ساقطًا عن هؤلاء لزم أن يكون ساقطًا عن العقلاء أيضًا، وذلك مناف لوضع الشريعة، فكان ما يؤدى إليه باطلاً.

**الرابع:** أنه لو كان كذلك لكان الكفار أول من رد الشريعة به، لأنهم كانوا فى غاية الحرص على رد ما جاء به رسول الله ﷺ، حتى كانوا يفترون عليه وعليها، فتارة يقولون: ساحر، وتارة: مجنون، وتارة: يكذبونه، كما كانوا يقولون فى

القرآن: سحر، وشعر، وافتراء، وإنما يعلمه بشر، وأساطير الأولين.

بل كان أولى ما يقولون إن هذا لا يعقل، أو هو مخالف للعقول، أو ما أشبه ذلك..

فلما لم يكن من ذلك شيء دلّ على أنهم عقلوا ما فيه، وعرفوا جريانه على مقتضى العقول، إلا أنهم أبوا من اتباعه لأمور أخر، حتى كان من أمرهم ما كان، ولم يعترضه أحد بهذا المدعى فكان قاطعًا فى نفيه عنه.

**الخامس:** أن الاستقراء دل على جريانها على مقتضى العقول، بحيث تصدقها العقول الراجحة وتنقاد لها طائعة أو كارهة[1]، ولا كلام فى عناد معاند، ولا فى تجاهل متعالم.

وهو المعنى بكونها جارية على مقتضى العقول، لا أن العقول حاكمة عليها ولا محسنة فيها ولا مقبحة..»[2] اهـ.

وقد رد الإمام الشاطبى على من زعم أن فى القرآن ما لا يعقل معناه كفواتح السور والمتشابهات وقال:

إن فواتح السور للناس فى تفسيرها مقال بناء على أنه مما يعلمه العلماء.

وإن قلنا إنه مما لا يعلمه العلماء فليس مما يتعلق به تكليف على حال، فإذا خرج عن ذلك خرج عن كونه دليلاً على شيء من الأعمال، فليس مما نحن فيه.

وإن سلم فالقسم الذى لا يعلمه إلا الله تعالى فى الشريعة نادر، والنادر لا حكم له، ولا تنخرم به الكلية المستدل عليها أيضًا لأنه مما لا يهتدى العقل إلى فهمه، وليس كلامنا فيه، إنما الكلام على ما يؤدى مفهومًا لكن على خلاف المعقول.

وفواتح السور خارجة عن ذلك لأنا نقطع أنها لو بينت لنا معانيها لم تكن إلا على مقتضى العقول وهو المطلوب.

وإن المتشابهات ليست مما تعارض مقتضيات العقول، وإن توهم بعض الناس

---

(١) قال محقق الكتاب: أى راغبة فى ذلك بدون سبق عناد أو مع سبقه، والكره غير الإكراه الذى لا يتأتى معه التصديق والانقياد العقلى.

(٢) الموافقات فى أصول الشريعة جـ٣، ص١٩، ٢٠.

فيها ذلك، لأن من توهم فيها ذلك فبناء على اتباع الهوى، كما نصت عليه الآية ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧].

لا أنه بناء على أمر صحيح، فإنه إن كان كذلك فالتأويل فيه راجع إلى معقول موافق لا إلى مخالف.

وإن فرض أنها مما لا يعلمها أحد إلا الله، فالعقول عنها مصدودة لأمر خارجي لا لمخالفته لها[1]. .

* * *

(١) الموافقات فى أصول الشريعة جـ٣، ص٢١.

## الغطاء الإسلامى للتصوف

مما لا شك فيه أن الإسلام دعا إلى الزهد فى الدنيا بمعنى أن قلب المسلم ينبغى أن يكون مفرغًا للحق الأعلى ومتعلقًا بالباقيات الصالحات، لا تشغله هموم الحياة، ولا يقلقه مستقبل الأيام، ثم هو يعيش قانعًا بما قسم الله له، يسعى فى مناكب الأرض ويعمرها ويأخذ بالأسباب..

وحرص الإسلام على تنقية السلوك الإنسانى من الشهوات الآثمة، ودفع المسلم إلى المجاهدة للنفس الأمارة بالعبادة الخالصة والقنوت لله تعالى ومداومة الذكر بالقلب واللسان آناء الليل وأطراف النهار فى إطار القصد والمقاربة والتيسير وبلا رهبانية وانقطاع..

ونصوص الشرع فى ذلك أكثر من أن تحصى..

**فمن نصوص العبادة:**

قال الله تعالى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩].

وقال جل شأنه: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ [المزمل: ٨].

وفى صحيح البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

إن الله تعالى قال: «من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه».

**ومن نصوص الزهد:**

قال الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ

حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال جل شأنه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وفى صحيح البخارى بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: كنت أمشى مع النبى ﷺ فى حَرَّة بالمدينة فاستقبلنا أُحد فقال:

يا أبا ذر، قلت: لبيك يا رسول الله فقال: ما يسرنى أن عندى مثل أُحُد هذا ذهبًا، تمضى علىّ ثلاثة أيام وعندى منه دينار، إلا شىء أرصده لدين، إلا أن أقول به فى عباد الله هكذا وهكذا وهكذا، عن يمينه وعن شماله وعن خلفه، ثم سار فقال: إن الأكثرين هم المقلون يوم القيامة إلا من قال بالمال هكذا وهكذا وهكذا، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه، وقليل ما هم».

**ومن نصوص التيسير:**

عندما نزل صدر سورة المزمل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ١].

قام الرسول ﷺ وأصحابه حتى تورمت أقدامهم فنزل آخرها بالتيسير فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ من ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

وفى صحيح الحديث عن أنس رضى الله عنه قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها وقالوا: أين نحن من النبى ﷺ، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فأصلى أبدًا.

وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر.

وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا.

فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى».

**حب آل بيت النبى ﷺ:**

إن حب آل بيت النبي ﷺ كان من عناصر الغطاء الإسلامى للفكر الوافد فى اتجاهه الصوفى والشيعى..

إن حب آل بيت النبى ﷺ أمر مقرر شرعًا لا جدال فيه، بنصوص القرآن والسنة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال جل شأنه: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

وأخرج مسلم في صحيحه بسنده عن يزيد بن حبان قال: انطلقت أنا وحصين ابن سَبْرة، وعمرو بن مسلم إلى زيد بن أرقم رضى الله عنهم، فلما جلسنا إليه قال له حصين:

لقد لقيت يا زيد خيرًا كثيرًا، رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصليت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيرًا كثيرًا، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ.

قال: يا ابن أخي والله لقد كَبِرت سنى، وقَدُم عهدى، ونسيت بعض الذى كنت أعى من رسول الله ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوا، وما لا فلا تكلفونيه ثم قال:

قام رسول الله ﷺ يومًا فينا خطيبًا بماء يدعى خُما، بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر ثم قال: أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر، يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب، وأنا تارك فيكم ثَقَلَين[1]: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به..

---

(١) الثَقَل: الشىء النفيس.

فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال:

وأهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى..

فقال له حصين: ومن أهل بيته، يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حُرم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل على، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس، قال: كل هؤلاء حُرِم الصدقة؟ قال: نعم.

هذا وما من مسلم يصلى صلاة إلا ويدعو لآل بيت النبى ﷺ فيقول فى التشهد: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد.

* * *

## الترجمة

انطلاقًا من وقائع العهد النبوى ودعوة الإسلام إلى العلم وحرصه على العقل بدأت جهود فردية للترجمة من الفكر الأجنبى إلى اللغة العربية. .

ويعد خالد بن يزيد بن معاوية أول من ترجم له كتب الطب والنجوم والكيمياء. .

وكانت الكيمياء تعنى يومئذ صناعة الذهب والفضة من غير معادنها، واهتم بها خالد بن يزيد لكى يغنى أصحابه وإخوانه وقال:

إنى طمعت فى الخلافة فاختزلت دونى فلم أجد منها عوضًا إلا أن أبلغ آخر هذه الصناعة فلا أحوج أحدًا عرفنى يومًا أو عرفته إلى أن يقف بباب سلطان رغبة أو رهبة. .

وساق ابن النديم أنه يقال ـ والله أعلم ـ:

«أنه صح له عمل الصناعة، وله فى ذلك عدة كتب ورسائل، وله شعر كثير فى هذا المعنى، رأيت منه نحو خمسمائة ورقة، ورأيت من كتبه كتاب الحرارات، وكتاب الصحيفة الكبير، وكتاب الصحيفة الصغير، وكتاب وصيته إلى ابنه فى الصنعة»[١].

ثم انتقلت الترجمة إلى رعاية الدولة واهتمام السلطة الحاكمة، فترجم المنطق فى عهد أبى جعفر المنصور، وكان سخيًا مع المترجمين رغم شهرته بالبخل وذلك لخدمة الجدل الساخن الذى دار يومئذ بين الفرق الإسلامية.

وأخذت الترجمة فى الاتساع والتنوع فى عهد هارون الرشيد، واكتمل عقدها فى عهد المأمون.

ومن المواقف المشهورة أن هارون الرشيد طلب بعد فتح الجيش الإسلامى لعمورية وأنقرة تسليم المخطوطات الإغريقية القديمة، وأن المأمون عندما انتصر على ميخائيل الثالث قيصر بيزنطة طالبه بتسليم كتب الفلاسفة القدماء وسجل

(١) الفهرست ـ لابن النديم ص٤٩٧ ط دار المعرفة ـ بيروت.

ذلك فى وثيقة الصلح . .

وتعلق المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه على ذلك قائلة :

أليس هذا فتحًا جديدًا فى عالم الحرب؟

أليس ذلك دليلاً فذًا على أن الحروب الإسلامية كانت حروب سلام وأمن ومجد[١]؟!

وإجماع المؤرخين على أن حركة الترجمة إلى العربية أنقذت التراث القديم كله من الضياع . . فلم تكن أوربا يومئذ تعرف شيئًا عنه أو تهتم به أو تحرص عليه . .

والملاحظة الجديرة بالاعتبار أن المترجمين كانوا نصارى أو يهودًا أو صابئة يعملون فى مهنة الطب والفلك مثل : آل ماسرجوية الطبيب اليهودى، وآل بختيشوع وهو طبيب من نساطرة النصارى، وآل ماسنوية وهو طبيب نصرانى، وآل حنين بن إسحق وهو طبيب نصرانى نسطورى.

وعمل بعضهم فى الفلك والرياضيات مثل آل ثابت بن قرة وهو منجم صابئى، وجمع بعضهم بين الطب والمنطق مثل يحى بن عدى وهو نصرانى يعقوبى[٢].

لقد قام هؤلاء المترجمون بالنقل من لغات العالم السائدة فى اليونان وفارس والهند والصين، وتجمع لدى المسلمين مذاهب الفلسفة اليونانية الطبيعية والإلهية والأخلاقية، ومذاهب الفلسفة الشرقية البوذية والمجوسية والزرادشتية وغيرها . .

وأصبحت قضايا الفكر الإسلامى ممزوجة بعقائد التناسخ والحلول والاتحاد، واللاهوت والناسوت، ونظرية المثل والعقول العشرة وغيرها . .

وتصارعت حول هذه القضايا والعقائد فرق ومذاهب إسلامية ووقف الفلاسفة والمتصوفة وعلماء الكلام والفقهاء والمحدثون فى مواجهات شائكة.

* * *

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب - ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقى جـ١ منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت.

(٢) راجع طبقات المترجمين فى كتاب (تاريخ الفكر العربى إلى أيام ابن خلدون) عمر فروخ ص٢٧٥، جـ١، دار العلم للملايين - بيروت.



# القضية السابعة

# التجديد الدينى



## التجديد الدينى

جاء لفظ الجديد فى آيات قرآنية مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

وقوله جل شأنه: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

وقوله جل شأنه: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠].

والمراد بالخلق الجديد هنا البعث وإعادة الإنسان مرة أخرى يوم القيامة للحساب والجزاء..

وتشير اللغة العربية إلى أن الجديد يقابل الخَلَق، وأن الجدة - بالكسر- تقابل البلى..

وعندما نتكلم عن التجديد فى الدين نريد به: إعادة الناس إلى حقائق الدين، ودعوتهم إلى الالتزام بشرائع الإسلام والوفاء بعهد الله.. وقد كان الناس قبل البعثة المحمدية يجدد دينهم الأنبياء ليعيدوهم إلى الحق وليحكموا بينهم فيما اختلفوا فيه..

قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقد ختمت الرسالات ببعثة سيدنا محمد ﷺ، فلا نبىّ بعده ولا رسول يعقبه، وكملت الشريعة.. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فإذا اندرست معالم الدين بين المسلمين كان العلماء ورثة الأنبياء، يقومون بتجديد الدين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والمحافظة على أصول الدين وأحكامه.

وفى صحيح البخارى بسنده عن المغيرة بن شعبة، عن النبى ﷺ قال: لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون.

وفى رواية عن معاوية قال: سمعت النبى ﷺ يقول:

لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك.

وقد فسر الإمام البخارى هذه الطائفة بأنهم أهل العلم، وفسرها الإمام النووى بأنها جماعة متعددة من أنواع المؤمنين، ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقيه ومحدث ومفسر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وزاهد وعابد. وقال: لا يلزم أن يكونوا مجتمعين فى بلد واحد بل يجوز اجتماعهم فى قطر واحد وافتراقهم فى أقطار الأرض»[1].

وجاء فى حديث رواه أبو داود، وصححه الأئمة، قول رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها».

واختلف العلماء فى شرح الحديث من وجوه:

هل المراد بالأمة أمة الإجابة أو أمة الدعوة؟ وهل اعتبار المائة من الميلاد أو من البعثة أو من الهجرة، أو من الوفاة؟

وهل المراد برأس المائة آخرها أو أولها؟

وهل المبعوث واحد أو متعدد؟

وأيًا ما كان فالمراد هو استمرار الدعوة إلى هذا الدين القيم، وتحمل المؤمنين الصادقين لتبعات هذه الدعوة، وعناية الله تعالى ووعده بحفظ الإسلام..

ومما لا يخفى أن البعث ليس مرادًا به بعث النبوة فإن النبوة قد انقطعت بعد سيدنا محمد ﷺ، وإنما هو بعث إيجاد وتدبير وعناية تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

وقد اجتهد العلماء فى تعيين المجددين على مدى القرون السوالف إلا أن خير المجددين هو عيسى ابن مريم عليه السلام، فظاهر القرآن وصريح السنة يؤكد نزول

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ١٣، ص٢٩٥.

عيسى ابن مريم إلى الأرض فى آخر الزمان ليكون حجة على اليهود والنصارى ويدعوهم إلى دين الإسلام ويجمع الناس على الحق. .

فقد أخرج البخارى فى صحيحه بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة خيرًا له من الدنيا وما فيها. .

ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٥٩].

هذا وقد أتى على الأمة الإسلامية حين من الدهر كانت مصائرها بيد المستعمر الدخيل الذى احتل الأرض وأفسد العقيدة وطمس معالم الحق ومزق وحدة الأمة.

وشاء الله أن يحمل المستعمر عصاه على كاهله ويرحل، لكنه خلف وراءه منافقين، وسدنة لفكره، ودعاة على أبواب جهنم. .

فتنازعت الأمة الإسلامية وتنازعتها اتجاهات شتى تحت دعاوى الإصلاح والتجديد والتقدم والحضارة.

ومن عجب أن تبرز دعوة البابية والبهائية والقديانية تحت ظلال الاستعمار البريطانى للهند، وفى حماية اليهود، ويتخذ أنصار هذه الفرق مدينة عكا الفلسطينية المحتلة كعبة لهم وملاذًا آمنًا لفلولهم. . وتقوم الجماعات الصليبية بالدعم السخى لهذه الفرق فى كل مكان يتواجدون فيه. . لأن هذه الفرق المنتسبة للإسلام تدعى استمرار النبوة وتستحدث تشريعات عصرية تخالف أحكام الإسلام، أهمها تحريم الجهاد. .[1].

كما قامت فرق وجماعات ـ تحت دعوى التجديد الدينى ـ منها ما هو متطرف يحمل السلاح، ويدمر كل شىء فى المجتمع المعاصر. .

ومنها ما هو سوى يلتزم بالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومنها

(١) من المفارقات خلال انفجار سوق القدس فى شهر يوليو ١٩٩٧م كان من بين القتلى شاب روسى يهودى، ورفض اليهود دفنه فى مقابرهم لأنه ليس يهوديًا خالصًا، ورفضت الكنيسة الرومانية دفنه فى مقابرهم لأنه ارتد عن المسيحية وأخيرًا دفن فى مقابر البهائيين.

ما هو سياسى، يسعى إلى السلطة ويتخذ الدين وسيلة لمآربه ويدعى أنه مصلح أو داعية أو المهدى المنتظر[1].

ومنها ما هو علمانى يريد فصل الدولة عن الإسلام، وعزل المجتمع عن الدين، وتنحية منهج الله عن قيادة الحياة..

وأثيرت قضايا تتعلق بالإصلاح السياسى والتربوى، وتطبيق الشريعة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وحقوق المرأة، والحلال والحرام فى الفن... إلخ..

وتعددت الاجتهادات..

**وبعد..**

فهذه دعوة للحوار، وتلك هى محاوره التى يدور حولها الاجتهاد، وجميع الفرقاء مطالبون أن يدلو بآرائهم ويسوقوا أدلتهم، وينظروا فى فكر الآخرين ويتفحصوا الدلائل والبينات بصفاء النية وحسن الوعى وإخلاص القلب لله..

* * *

---

(١) فى غرة المحرم ١٤٠٠هـ استولى جماعة من الشباب على الحرم المكى يتزعمهم المدعو جهيمان العتيبى ودعوا المسلمين إلى بيعة محمد بن عبد الله القحطانى بدعوى أنه المهدى المنتظر، واستمرت المعارك فى الحرم الشريف خمسة عشر يومًا راح ضحيتها المئات من الركع السجود.

# المبحث الرابع

## قراءات فى كتب الفرق

- أنواع الدراسات للفرق.
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين.
- الفرق بين الفِرق.
- الملل والنحَل.
- البداية والنهاية.

## أنواع الدراسات للفرق

حظيت المكتبة الإسلامية بدراسات متعددة حول الفرق الإسلامية، وصفًا ونقدًا، تحليلاً وتعقيبًا..

وبدأت هذه الدراسات منذ وقت مبكر فى تاريخ الإسلام، فقد صاحبت نشأة الفرق، فما من إمام من أئمة الفرق إلا وله أو عنه كتاب أو كتب، تبين دعوته، وتشرح طريقته، وتقدم أدلته على ما يرى..

وماجت الساحة الإسلامية بحركة فعل ورد فعل تجاه هذه المذاهب والجماعات، ونشطت حركة التأليف دفاعًا أو هجومًا، وكان القلم أقوى من السيف، وكان الكتاب أبقى من الأئمة، وسرت دعوة كل الفرق والطوائف من مهدها وتغلغلت فى كل جيل ومصر، وتوالى الأنصار والخصوم من كل صوب وحدب..

وتلك سنة جارية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها..

**وتنوعت هذه الدراسات على النحو التالى:**

**أولاً: دراسات للفرق الإسلامية بلسان زعمائها ودعاتها والمعتنقين لها:**

ومن نماذج هذه الدراسات:

* **الرعاية لحقوق الله**[1].

لأبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى المتوفى ٢٤٣ هـ وهذا الكتاب فى مجال التصوف وتهذيب النفس ورياضة الروح، ومعالم الطريق التى ارتضاها المحاسبى سبيلاً إلى الله تعالى..

* **شرح الأصول الخمسة**[2].

لقاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد المتوفى ٤١٥هـ، وهذا الكتاب يشرح مذهب الاعتزال، وقد بدأه المؤلف بقوله: «إن سأل سائل فقال: ما أول ما أوجب الله عليك؟

---

(١) تحقيق عبد الرحمن أحمد عطا، ط دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٢) حققه وقدم له د. عبد الكريم العثمان ط مكتبة وهبة بالقاهرة.

فقل: النظر المؤدى إلى معرفة الله تعالى، لأنه تعالى لا يعرف ضرورة ولا بالمشاهدة، فيجب أن نعرفه بالتفكر والنظر».

*** شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة[1].**

للإمام أبى القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبرى اللالكائى، المتوفى ٤١٨هـ.

وهذا الكتاب يشرح عقيدة السلف.

*** أصول الدين[2].**

للإمام أبى منصور عبد القاهر بن طاهر التميمى البغدادى المتوفى ٤٢٩هـ.

وهذا الكتاب يشرح عقيدة الأشعرية فى خمسة عشر أصلاً تشمل التوحيد والنبوات والإمامة وأحكام الفرق الأخرى.

* * *

**ثانيًا: دراسات مستقلة عن الفرق، إما وصفًا تصف الفرق وآراءها وتنسبها إلى زعمائها، وإما نقدًا تعقب عليها وتفند عقائدها..**

ومن نماذج الدراسات الوصفية المستقلة:

*** مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين[3].**

للإمام أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى المتوفى ٣٢٤هـ، وهذا الكتاب يشرح مقالات فرق الشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة والجهمية وغيرها..

ومن نماذج الدراسات النقدية المستقلة:

*** كتاب الرد على الزنادقة والجهمية.**

للإمام أحمد بن حنبل المتوفى ٢٤١هـ.

*** وكتاب خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل.**

للإمام البخارى المتوفى ٢٥٦هـ.

---

(١) تحقيق د. أحمد سعد حمدان ط دار طيبة بالرياض.

(٢) الطبعة الأولى بإستانبول ١٣٤٦هـ، ١٩٢٨م.

(٣) تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد، ط مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة.

*** وكتاب الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة.**

للإمام عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى ٢٧٦هـ.

*** وكتاب الرد على الجهمية.**

*** وكتاب الرد على المريسى.**

وكلاهما للإمام أبى سعيد عثمان الدارمى المتوفى ٢٨٠هـ.

وهذه الكتب مجموعة فى مجلد واحد يسمى «عقائد السلف»[1].

*** التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع**[2].

للإمام أبى الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطى الشافعى المتوفى ٣٧٧هـ.

وهذه الكتاب يشرح عقائد الشيعة والمعتزلة والمرجئة والخوارج والجهمية ويرد عليها. .

*** منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية**[3].

للإمام أبى العباس أحمد بن تيمية الحرانى الدمشقى الحنبلى المتوفى ٧٢٨هـ.

وهذا الكتاب يتعقب كتابًا لأحد الروافض يسمى «منهاج الكرامة فى معرفة الإمامة» وقد رتبه الرافضى على خمسة فصول هى:

١ـ فى نقل المذاهب فى هذه المسألة.

٢ـ فى أن مذهب الإمامية واجب الاتباع.

٣ـ فى الأدلة على إمامة على رضى الله عنه بعد رسول الله ﷺ.

٤ـ فى الاثنى عشر.

٥ـ فى إبطال خلافة أبى بكر وعمر وعثمان. .

---

(١) تحقيق د. على سامى النشار وعمار جمعى الطالبى ط منشأة المعارف بالإسكندرية.

(٢) تحقيق الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثرى، ط مكتبة المثنى ببغداد، والمعارف ببيروت ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.

(٣) الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٢١هـ، والطبعة الثانية ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م، دار الفكر.

*** مصرع التصوف أو تنبيه الغبى إلى تكفير ابن عربى**[١].

*** وتحذير العباد من أهل العناد.**

للإمام برهان الدين البقاعى المتوفى ٨٨٥هـ.

وهذا الكتاب ينقل نصوصًا من «فصوص الحكم» لابن عربى، ومن «التائية الكبرى» لابن الفارض، ويستشهد بهذه النصوص على كفر قائلها.. ثم يذكر فتاوى لأعلام من القرن السابع والثامن والتاسع تحذر من بدع الصوفية.

*** الصواعق المحرقة فى الرد على أهل البدع والزندقة**[٢].

للإمام أحمد بن حجر الهيتمى المكى المتوفى ٩٧٤هـ.

وهذا الكتاب يبين مناقب الخلفاء الراشدين وآل البيت النبوى.

ويرد على الروافض الذين ينتقصون أصحاب رسول الله ﷺ ويفضلون بينهم على غير ما ذهب إليه أهل الحق.

* * *

**ثالثًا: دراسات للفرق من خلال دراسة الأديان:**

فقد قام علماء أجلاء بدراسة للأديان وصفًا أو نقدًا، وأثناء دراستهم لكل دين عرضوا فرقه وطوائفه..

ومن نماذج الدراسات الوصفية للفرق من خلال الأديان:

*** الملل والنحل**[٣].

للإمام أبى الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستانى المتوفى ٥٤٨هـ.

فقد جمع المؤلف فى هذا الكتاب جميع ما تدين به المتدينون وانتحله المنتحلون ـ على حد قوله ـ ومن خلال دراسته لكل دين عرض فرقه وجماعاته ومذاهبه، وقسم فرق المسلمين إلى أربع كبار هى:

١ـ القدرية. ٢ـ الصفاتية.

٣ـ الخوارج. ٤ـ الشيعة.

---

(١) تحقيق عبد الرحمن الوكيل، الطبعة الأولى ١٣٧٢هـ، ١٩٥٣م.

(٢) تحقيق د. عبد الوهاب عبد اللطيف ـ مكتبة القاهرة سنة ١٩٦٥م.

(٣) تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل ط دار الفكر ـ بيروت.

* **إعقادات فرق المسلمين والمشركين**[١].

للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازى المتوفى ٦٠٤هـ.

وهذا الكتاب ـ رغم صغر حجمه ـ كبير المعنى دقيق العبارة، يشرح باختصار آراء فرق المعتزلة والخوارج والروافض والغلاة والكيسانية والكرامية والجبرية والمرجئة، وأحوال الصوفية، والذين يتظاهرون بالإسلام، وإن لم يكونوا مسلمين، وعَدّ منهم الباطنية والقرامطة، وكان الباب العاشر فى شرح الفرق الذين هم خارجون على الإسلام بالحقيقة والاسم وهم فرق اليهود والنصارى والمجوس والصابئة وأحوال الفلاسفة..

ومن نماذج الدراسات النقدية للفرق من خلال الأديان:

* **الفصل فى الملل والأهواء والنحل**[٢].

للإمام أبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى المتوفى ٤٥٦هـ، وهذا الكتاب يتعقب الأديان والمذاهب بالمناقشة الموضوعية والتحليل العميق وإيراد الحجج والبراهين..

* * *

**رابعًا: دراسات للفرق الإسلامية من خلال تفسير القرآن الكريم:**

فقد عمد زعماء الفرق إلى تفسير القرآن من منظور طائفى، وحملوا آيات التنزيل على معالم فكرهم الذى اعتنقوه ودافعوا عنه.. ولهذا تنوعت عقائد المفسرين على النحو التالى:

* **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل**[٣].

للإمام أبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى ٥٣٨هـ فهذا التفسير يتبنى الاتجاه الاعتزالى ويدافع عنه دفاعًا كبيرًا، ونظرًا لأهمية كتاب «الكشاف» فى التفسير وإبراز جوانب الإعجاز القرآنى فقد قام بعض العلماء بالتنبيه على مواطن الاعتزال، مثل كتاب «الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال»

---

(١) تحقيق د. على سامى النشار ـ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٣٥٦هـ، ١٩٣٨م.

(٢) تحقيق د. محمد نصر، د. عبد الرحمن عميرة ـ ط عكاظ سنة ١٤٠٢هـ.

(٣) ط البابى الحلبى

للإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندرى المالكى، وطبع هذا الكتاب على هامش الكشاف..

**٭ مجمع البيان فى تفسير القرآن**(١).

للشيخ أبى على الفضل بن الحسن الطبرسى المتوفى ٥٤٨هـ.

وهذا التفسير يمثل الاتجاه الشيعى، فمؤلفه من أكابر علماء الإمامية فى القرن السادس الهجرى، وكتبه وقد ذرف سنه على الستين واشتعل رأسه شيبًا كما قال فى مقدمته.

وكان منهج المؤلف دقيقًا فهو يكتب الآية أو الآيات المراد تفسيرها ثم يبحثها تحت مجموعة عناوين هى:

القراءة ـ الحجة ـ اللغة ـ النظم ـ النزول ـ الإعراب ـ المعنى.

والمؤلف يسوق الآراء المتعددة فى التفسير مع التنبيه على رأى الإمامية وتوجيهه والاستدلال عليه..

**٭ التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**(٢).

للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن على التميمى البكرى الرازى الشافعى المتوفى ٦٠٤هـ.

وهذا التفسير يمثل الاتجاه الأشعرى، وله تقسيمات فريدة، فهو يفسر الآيات تحت مجموعة عناوين قد تكون مباحث، أو أنواعًا، أو مراتب، أو مسائل، أو أسئلة، أو أقوالاً، أو طرقًا..

ويسوق الإمام آراء كثير من المتكلمين والفلاسفة والمتصوفة والفقهاء، ويفند الآراء المخالفة لمذهبه(٣).

٭ ٭ ٭

(١) ط مكتبة الحياة ـ بيروت، سنة ١٣٨٠هـ، ١٩٦١م.

(٢) الطبعة الأولى سنة ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، ط دار الفكر ـ بيروت.

(٣) من المؤلفات الحديثة فى التفسير المذهبى كتاب (أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن) للشيخ محمد الأمين الشنقيطى المتوفى ١٣٩٣هـ، وهو من أهم الكتب التى تمثل الاتجاه السلفى، وكذلك كتاب (فى ظلال القرآن) للشيخ سيد قطب المتوفى سنة ١٩٦٥م، وهو يمثل فكر الإخوان المسلمين.

**خامسًا: دراسات للفرق الإسلامية من خلال دراسة التاريخ العام للمسلمين:**

فإن التاريخ ليس مجرد قيام دولة أو سقوطها، وتولى حاكم أو عزله، وإشعال حرب أو إخمادها . .

فإن التاريخ بمفهومه الواسع هو دراسة للسياسة والحضارة والفكر . . وقد قام بذلك خير قيام العلماء المسلمون . .

ومن هذه النماذج:

*** البداية والنهاية**[1].

للإمام عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير المتوفى ٧٧٤هـ، وهذا الكتاب يستوعب تاريخ العالم منذ بدء الخلق، ويؤرخ لأكثر من سبعة قرون فى تاريخ المسلمين . . وقد ذكر الفرق الإسلامية على اختلاف مشاربها . .

* * *

ونحن نعرض هنا قراءات فى بعض هذه الدراسات:

---

(١) تحقيق محمد عبد العزيز النجار ط مطبعة الفجالة الجديدة بالقاهرة.

## مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين

هذا الكتاب له أهمِّية بالغة فى وصف الفرق وبيان آرائها وتعداد طوائفها، نظرًا لسبقه الزمنى ومكانة مؤلفه فهو مؤسس مذهب الأشاعرة، وكان من قبل معتزليًا على مدى أربعين عامًا، فقد ألفه الإمام أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى المتوفى عام ٣٢٤هـ[1].

**المؤلفات السابقة:**

وبين المؤلف سبب تأليفه فقال:

«فإنه لا بد ـ لمن أراد معرفة الديانات والتمييز بينها ـ من معرفة المذاهب والمقالات.

ورأيت الناس فى حكاية ما يحكون من ذكر المقالات، ويصنفون فى النحل والديانات:

من بين مقصر فيما يحكيه، وغالط فيما يذكره من قول مخالفيه. ومن بين معتمد للكذب فى الحكاية، إرادة التشنيع على من يخالفه. ومن بين تارك للتقصى فى روايته لما يرويه من اختلاف المختلفين. ومن بين من يضيف إلى قول مخالفيه، ما يظن أن الحجة تلزمهم به.. وليس هذا سبيل الربانيين ولا سبيل الفطناء المميزين..

فحدانى ما رأيت من ذلك على شرح ما التمست شرحه من أمر المقالات، واختصار ذلك، وترك الإطالة، والإكثار».

ومن هنا يتبين أن كتبًا كثيرة دونها العلماء قبل الأشعرى فى الأديان والفرق، وأن الأشعرى أخذ عليها مآخذ، حاول أن يتجنبها فى كتابه هذا..

---

(١) الكتاب تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ـ مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، ونقل المحقق ـ رحمه الله تعالى ـ اختلافًا حول سنة وفاة الأشعرى، فقيل: سنة ٣٣٠هـ، أو ٣٢٤هـ، أو نيف وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة.

**اختلاف الصحابة:**

وبعد هذه المقدمة بدأ الأشعرى يذكر ما حدث من اختلاف بين المسلمين عقب وفاة النبى ﷺ. . فقال:

«اختلف الناس بعد نبيهم ﷺ فى أشياء كثيرة، ضلل فيها بعضهم بعضًا، وبرئ بعضهم من بعض، فصاروا فرقًا متباينين، وأحزابًا متشتتين، إلا أن الإسلام يجمعهم ويشتمل عليهم. .».

وذكر الأشعرى اختلاف الصحابة فى الإمامة إلى أن بايعوا الصديق أبا بكر رضى الله عنه فاجتمعوا على إمامته ومن بعده عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ثم ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه وأنكر قوم عليه فى آخر أيامه أفعالاً، ما زالت محل اختلاف إلى اليوم. . وانقسم الناس فى أمر قتله فريقين: فأما أهل السنة والاستقامة فإنهم قالوا: كان رضوان الله عليه مصيبًا فى أفعاله، قتله قاتلوه ظلمًا وعدوانًا.

وقال قائلون بخلاف ذلك، وهذا اختلاف الناس إلى اليوم. .

ثم بويع على بن أبى طالب رضوان الله عليه فاختلف الناس فى أمره، فمن منكر لإمامته، إلى قاعد عنه، إلى قائل بإمامته معتقد لخلافته وهذا اختلاف بين الناس إلى اليوم. .

**أمهات الفرق:**

قسم الأشعرى فرق المسلمين إلى عشرة أصناف:

الشيعة - الخوارج - المرجئة - المعتزلة - الجهمية - الضرارية - الحسينية - البكرية والعامة - أصحاب الحديث - الكلابية[1].

**أصناف الشيعة:**

١- الغالية الذين غلوا فى على بن أبى طالب وقالوا فيه قولاً عظيمًا وجعلهم خمس عشرة فرقة.

٢- الرافضة الذين رفضوا إمامة أبى بكر وعمر، ويدعون الإمامية لقولهم بالنص على إمامة على بن أبى طالب.

(١) علق المحقق على ذلك فقال: هكذا وقع فى أصول الكتاب، وأنت إذا عددت الأسماء التى ذكرت وجدتها أحد عشر اسمًا.

ثم ساق اختلاف الروافض أصحاب الإمامة حول هذه القضايا:

ـ تجسيم الإله، صفات البارى سبحانه.

ـ أعمال العباد وإرادة الله ـ رجوع الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة ـ القرآن هل زيد فيه أو نقص منه؟[1].

ـ الأئمة هل يجوز أن يكونوا أفضل من الأنبياء أو لا؟

ـ وهل تقع على أيديهم المعجزات وتتنزل عليهم الملائكة بوحى؟

ـ وهل يعلمون الغيب بأجمعه أو لا؟

ـ وهل يجوز أن يعصى الرسول أو لا؟

٣ـ الصنف الثالث الزيدية، وسموا بذلك لتمسكهم بقول زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب.

وهم ست فرق ذكرها الأشعرى، وبيّن آراءهم فى البارى عز وجل وأفعاله وأسمائه وصفاته، وقضايا أفعال العباد والإيمان والكفر والاجتهاد.

ثم نص الأشعرى على أربعة وعشرين اسمًا ممن خرجوا من آل النبى يطلبون الإمامة ويقاتلون عليها، وكان ختامهم المقتول على البركة الذى خرج بأرض الشام وظفر به المكتفى بالله.

* * *

**مقالات الخوارج:**

قال الأشعرى فى مفتتح هذه المقالات:

أجمعت الخوارج على إكفار على بن أبى طالب رضوان الله عليه أن حكّم (الرجال).

وهم مختلفون: هل كفره شرك أم لا؟

وأجمعوا على أن كل كبيرة كفر إلا النَّجدات، فإنها لا تقول بذلك، وأجمعوا على أن الله سبحانه يعذب أصحاب الكبائر عذابًا دائمًا.

---

(١) أجمع الشيعة على استحالة الزيادة فى القرآن، واختلفوا فى جواز النقص منه، فجمهورهم على أن القرآن ما زيد فيه ولا نقص منه، والآخرون على جواز النقص ووقوعه فى القرآن وأن الإمام يحيط به.

ثم ساق الأشعرى أقوال الخوارج، وذكر ألقابهم، فهم خوارج لخروجهم عَلَى علىّ.

وهم محكمة لإنكارهم الحكمين، وقولهم لا حكم إلا لله.

وهم حرورية لنزولهم بحروراء فى أول أمرهم..

وهم الشراة لقولهم شرينا أنفسنا فى طاعة الله أى بعناها..

* * *

**مقالات المرجئة:**

ذكر الإمام الأشعرى اختلاف المرجئة فى الإيمان على اثنتى عشرة فرقة:

منهم من يزعم أن الإيمان بالله هو المعرفة بالله وبرسله وبجميع ما جاء من عند الله فقط، وأن ما سوى المعرفة من الإقرار باللسان، والخضوع بالقلب، والمحبة لله ورسوله والتعظيم لهما، والخوف منهما، والعمل بالجوارح فليس بإيمان، وزعموا أن الكفر بالله هو الجهل به..

ومنهم من يزعم أن الإيمان بالله هو المعرفة بالله فقط، والكفر هو الجهل به فقط.

ومنهم من يزعم أن الإيمان هو المعرفة بالله والخضوع له، وهو ترك الاستكبار عليه، والمحبة له، فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فهو مؤمن، وزعموا أن إبليس كان عارفًا بالله غير أنه كفر باستكباره على الله..

ثم تكلم الأشعرى عن اختلاف المرجئة فى الأخبار إذا وردت من قبل الله - سبحانه - على سبع فرق:

فمنهم من قال: جائز أن يخبر الحكيم الصادق بالخبر ثم يستثنى منه، فيكون له أن يفعل وله أن لا يفعل للاستثناء، ويكون صادقًا إن هو لم يفعل ولا يكون ذلك مستنكرًا فى اللغة ولا كذبًا..

ومنهم من قال: إن الوعد ليس فيه استثناء، وأن الوعيد فيه استثناء مضمر..

ومنهم من قال: إنه ليس فى أهل الصلاة وعيد، وإنما الوعيد فى المشركين وقالوا: لا ينفع مع الشرك عمل، كذلك لا يضر مع الإيمان عمل، ولا يدخل النار أحد من أهل القبلة..

**مقالات المعتزلة:**

ذكر الأشعرى ما أجمعت عليه المعتزلة من عقائد فى جانب التوحيد، وبين الطوائف التى شاركتهم فيها من الخوارج والمرجئة والشيعة. .

ثم ساق اختلاف المعتزلة فى الأسماء والصفات، والمحكم والمتشابه، والهدى والإضلال، والنصرة والخذلان، والقدر وأفعال العباد. . وعلى سبيل المثال:

**واختلف المعتزلة فى محكم القرآن ومتشابهه:**

فقال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد: المحكمات ما أعلم الله سبحانه من عقابه للفساق كقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا**﴾ [النساء:٩٣]، وما أشبه ذلك من آى الوعيد.

وقوله تعالى: ﴿**وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾ [آل عمران:٧]: هى ما أخفى الله عن العباد عقابه عليها، ولم يبين أنه يعذب عليها كما بيّن فى المحكم منه.

وقال أبو بكر الأصم: محكمات يعنى حججًا واضحة، لا حاجة إلى طلب معانيها، كنحو ما أخبر الله سبحانه عن الأمم التى مضت ممن عاقبها، وكنحو ما أخبر عن مشركى العرب أنه خلقهم من النطفة، وأخرج لهم من الماء فاكهة وأبًا. .

فهذا كله محكم ﴿**آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾، أى الأصل الذى لو فكرتم فيه عرفتم أن كل شىء جاءكم به محمد ﷺ حق من عند الله.

﴿**وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾ كنحو ما أنزل الله من أنه يبعث الأموات ويأتى بالساعة، وينتقم ممن عصاه، مما لا يدرك إلا بالنظر.

* * *

**اختلفت المعتزلة فى الآجال على قولين:**

فقال أكثر المعتزلة: الأجل هو الوقت الذى فى معلوم الله سبحانه أن الإنسان يموت فيه أو يقتل، فإذا قتل قتل بأجله، وإذا مات مات بأجله.

وشذ قوم من جهالهم فزعموا أن الوقت الذى فى معلوم الله سبحانه أن الإنسان لو لم يقتل لبقى إليه هو أجله، دون الوقت الذى قتل فيه.

* * *

**قول أهل الحديث والسنة:**

حكى الأشعرى جملة ما عليه أهل الحديث والسنة من عقائد فى الإلهيات والنبوات والسمعيات، نقتطف منها ما يلى:

* الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله، وما جاء من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ..

* الإقرار بأن الله سبحانه على عرشه، كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، وأنه له يدين بلا كيف، كما قال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، وكما قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، وأن له عينين بلا كيف، كما قال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]، وأن له وجهًا، كما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧].

* الإيمان بأنه لا يكون فى الأرض من خير ولا شر إلا ما شاء الله، وأن الأشياء تكون بمشيئة الله.. وأنه لا خالق إلا الله، وأن سيئات العباد يخلقها الله، وأن أعمال العباد يخلقها الله عز وجل، وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا منها شيئًا.

* الإيمان بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الله سبحانه يرى بالأبصار يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر، يراه المؤمنون ولا يراه الكافرون.

* الإقرار بشفاعة رسول الله ﷺ وأنها لأهل الكبائر من أمته، وبعذاب القبر، وأن الحوض حق، وأن الصراط حق..

* لا تكفير لأحد من أهل القبلة بذنب يرتكبه، ولا شهادة على أحد من أهل الكبائر بالنار، ولا حكم بالجنة لأحد من الموحدين حتى يكون الله سبحانه ينزلهم حيث شاء.

* الإيمان يزيد وينقص، وهو قول وعمل..

* معرفة حق السلف الذين اختارهم الله سبحانه لصحبة نبيه ﷺ، والأخذ بفضائلهم، والإمساك عما شجر بينهم صغيرهم وكبيرهم، وتقديم أبى بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضوان الله عليهم، والإقرار بأنهم الخلفاء الراشدون المهديون وأنهم أفضل الناس كلهم بعد النبى ﷺ.

**الدقيق:**

ثم تحدث الإمام الأشعرى عن اختلاف الناس فى الأمور الدقيقة: كالجسم، والحركة والسكون، والجزء الذى لا يتجزأ، والروح والنفس والحياة، والحواس، واللون، والأعراض، والبقاء، والفناء، والموت، والصوت، والخواطر، وأفعال القلوب، والمعلوم والمجهول، والجن والشياطين، ودار الإيمان ودار الكفر.. إلخ.

**ومن نماذج هذه الاختلافات:**

* **اختلف الناس فى الجن: هل يدخلون فى الناس؟ على مقالتين[1]:**

فقال قائلون: محال أن يدخل الجن فى الناس.

وقال قائلون: يجوز أن يدخل الجن فى الناس لأن أجسام الجن أجسام رقيقة، فليس بمستنكر أن يدخلوا فى جوف الإنسان من خروقه كما يدخل الماء والطعام فى بطن الإنسان، وهو أكثف من أجسام الجن، وقد يكون الجنين فى بطن أمه وهو أكثف جسمًا من الشيطان، وليس بمستنكر أن يدخل الشيطان إلى جوف الإنسان.

* **القول فى دوام نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار[2]:**

١- أجمع أهل الإسلام جميعًا إلا الجهم أن نعيم أهل الجنة دائم لا انقطاع له، وكذلك عذاب الكفار فى النار.

٢- وقال جهم بن صفوان إن الجنة والنار تفنيان وتبيدان، ويفنى من فيهما حتى لا يبقى إلا الله وحده، كما كان وحده لا شىء معه.

٣- وقال أبو الهذيل بانقطاع حركات أهل الجنة والنار، فإنهم يسكنون سكونًا دائمًا.

٤- وقال قوم إن أهل الجنة ينعمون فيها، وإن أهل النار ينعمون فيها، بمنزلة دود الخل يتلذذ بالخل، ودود العسل يتلذذ بالعسل، وهم البطيخية.

**وبعد:**

لقد كتب أبو الحسن الأشعرى هذه المقالات على بصيرة، وكان دقيقًا غاية الدقة فى وصف الفرق وتصنيفها وبيان آرائها..

---

(١) ص١٠٨، جـ٢.

(٢) ص١٤٨، جـ٢.

وانتفع بمقالات الأشعرى كل من جاء بعده من العلماء الذين كتبوا فى الفرق. .

لقد وصف الأشعرى فأجاد الوصف وترك إصدار الأحكام وتناطح الحجج لفطنة القارئ وجهاد العلماء فى كل زمان ومكان، ولقد كان هو واحدًا علمًا فى هذا المضمار، وله مؤلفات كثيرة فى الرد على المعتزلة وباقى الطوائف. .

ولقد أضرب الأشعرى صفحًا فى كتابه «المقالات» عن حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة. . فلم يشر إليه سلبًا أو إيجابًا. .

* * *

## الفَرْق بين الفِرَق

ألف هذا الكتاب الإمام عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادى الإسفرائينى التميمى، المتوفى عام ٤٢٩هـ - ١٠٣٧م(١).

**قال فى مقدمته:**

«سألتم - أسعدكم الله بمطلوبكم - شرح معنى الخبر المأثور عن النبى ﷺ فى افتراق الأمة ثلاثًا وسبعين فرقة، منها واحدة ناجية تصير إلى جنة عالية، وبواقيها(٢) عادية، تصير إلى الهاوية والنار الحامية..

وطلبتم الفرق بين الفرقة الناجية التى لا يزل بها القدم، ولا تزول عنها النعم، وبين فرق الضلال الذين يرون ظلام الظلم نورًا، واعتقاد الحق ثبورًا، وسيصلون سعيرًا، ولا يجدون من دون الله نصيرًا...» وجاء الكتاب بعد هذه المقدمة على خمسة أبواب هكذا:

**الباب الأول: فى بيان الحديث المأثور فى افتراق الأمة:**

ذكر البغدادى روايات الحديث (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة. ثم قال:

للحديث الوارد فى افتراق الأمة أسانيد كثيرة، وقد رواه عن النبى ﷺ جماعة من الصحابة كأنس بن مالك، وأبى هريرة، وأبى الدرداء، وجابر، وأبى سعيد الخدرى، وأُبَىّ بن كعب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبى أمامة، ووائلة بن الأسقع وغيرهم)(٣).

ثم بيّن البغدادى أن المراد بالفرق المذمومة فرق أصحاب الأهواء المخالفين فى

(١) تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد، نشر مكتبة محمد على صبيح وأولاده بميدان الأزهر بمصر.

(٢) أى بواقى الفرق عادية من العدوان وهى مجاوزة الحد.

(٣) رفض ابن حزم هذا الحديث فى كتابه (الفصل) وقال: لا يصح إسناده أصلاً.

أبواب العدل والتوحيد، أو الوعد والوعيد، أو فى بابى القدر والاستطاعة، أو فى تقدير الخير والشر، أو فى باب الهداية والضلالة، أو فى باب الإرادة والمشيئة، أو فى باب الرؤية والإدراك، أو فى باب صفات الله - عز وجل - وأسمائه وأوصافه. . . إلخ.

وأخرج البغدادى فرق الفقهاء المختلفين فى فروع الفقه مع اتفاقهم على أصول الدين، ولم يجعلهم من الفرق المذمومة.

* * *

**الباب الثانى: فى كيفية افتراق الأمة ثلاثًا وسبعين فرقة:**

ساق البغدادى اختلاف الفرق فى مفهوم ملة الإسلام أو أمة الإسلام واختار أن أمة الإسلام تجمع المقرين بحدوث العالم وتوحيد صانعه وقدمه وصفاته وعدله وحكمته، ونفى التشبيه عنه، وبنبوة محمد ﷺ ورسالته إلى الكافة، وبتأبيد شريعته، وبأن كل ما جاء به حق، وبأن القرآن منبع أحكام الشريعة، وأن الكعبة هى القبلة التى تجب الصلاة إليها. .

فكل من أقر بذلك كله ولم يَشُبْه ببدعة تؤدى إلى الكفر فهو السنى الموحد.

ثم حكم البغدادى بكفر الباطنية والبيانية والمغيرية والخطابية من الشيعة، وبكفر الميمونية من الخوارج، وبكفر اليزيدية من الإباضية لأن لكل هؤلاء بدعة تناقض أصلاً من أصول الدين. ثم أفتى بأن المعتزلة والخوارج والرافضة الإمامية والزيدية، والبخارية، والجهمية، والضرارية والمجسمة من الأمة فى بعض الأحكام هو جواز دفنه فى مقابر المسلمين، وفى أنه لا يمنع حظه من الفئ والغنيمة إن غزا مع المسلمين، وفى أنه لا يمنع من الصلاة فى المسجد.

وليس من الأمة فى أحكام سواها، فلا تجوز الصلاة عليه ولا خلفه، ولا تحل ذبيحته ولا نكاحه لامرأة سنية[1]. ثم أشار البغدادى إلى بعض الخلافات التى حدثت عند وفاة النبى ﷺ، وما طرأ على الأمة من شقاق ونزاع فى أمر الخلافة والإمامة، وما تلا ذلك فى زمان المتأخرين من الصحابة من خلاف القدرية فى القدر والاستطاعة على يدى معبد الجهنى وغيلان الدمشقى والجعد بن درهم. . ثم

(١) لا ندرى ماذا أبقى البغدادى لهؤلاء من إسلام؟!

توالى ظهور الفرق.

**وقد جعل البغدادى فرق الانحراف والضلال اثنتين وسبعين فرقة على النحو التالى:**

* الخوارج عشرون فرقة.

* الروافض عشرون فرقة منها ثلاث زيدية، وفرقتان من الكيسانية، وخمس عشرة فرقة من الإمامية.

وأخرج غلاة الشيعة من الملة فليسوا من الفرق الإسلامية.

* المعتزلة عشرون فرقة.

وجعل فرقتى الخابطية والحمارية ليستا من الإسلام.

* المرجئة الخالصة خمس فرق.

* البخارية ثلاث فرق.

* البكرية فرقة واحدة.

* الضرارية فرقة واحدة.

* الجهمية فرقة واحدة.

* الكرامية فرقة واحدة.

فهذه اثنتان وسبعون فرقة..

أما الفرقة الثالثة والسبعون فهى أهل السنة والجماعة من فريقى الرأى والحديث وهم جمهور الأمة وسوادها الأعظم من أصحاب مالك، والشافعى وأبى حنيفة، والأوزاعى، والثورى، وأهل الظاهر.

* * *

**الباب الثالث: فى بيان تفصيل مقالات فرق أهل الأهواء وفضائح كل فرقة:**

وبدأ بمقالات الروافض، وذكر للزيدية ثلاث فرق هى: الجارودية والسليمانية والبُتْرية، ثم قال: اجتمعت الفرق الثلاث من الزيدية على القول بأن أصحاب الكبائر من الأمة يكونون مخلدين فى النار، فهم من هذا الوجه كالخوارج الذين أيأسوا أشرار المذنبين من رحمة الله تعالى و ﴿**لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [يوسف: ٨٧].

وإنما قيل لهذه الفرق الثلاث زيدية لقولهم بإمامة زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب فى وقته، وإمامة ابنه يحيى بن زيد من بعده، وكان زيد بن على قد بايعه على إمامته خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة، وخرج بهم على والى العراق وهو يوسف بن عمر الثقفى، عامل هشام بن عبد الملك على العراقيين، فلما استمر القتال بينه وبين يوسف بن عمر الثقفى قالوا له: إنا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك فى أبى بكر وعمر، اللذين ظلما جدك على بن أبى طالب.

فقال زيد: «إنى لا أقول فيهما إلا خيرًا، وما سمعت أبى يقول فيهما إلا خيرًا، وإنما خرجت على بنى أمية الذين قتلوا جدى الحسين، وأغاروا على المدينة يوم الحَرَّة، ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار».

ففارقوه عند ذلك حتى قال لهم: رفضتمونى..

ومن يومئذ سموا رافضة[1]..

وثبت معه نضر بن خزيمة العنسى، ومعاوية بن إسحق بن يزيد بن حارثة، فى مقدار مائتى رجل، وقاتلوا جند يوسف بن عمر الثقفى، حتى قتلوا عن آخرهم، وقتل زيد، ثم نبش من قبره وصلب ثم أحرق بعد ذلك[2]..

ثم ذكر البغدادى للكيسانية فرقتين، يجمعهم شيئان:

**أحدهما:** قولهم بإمامة محمد ابن الحنفية.

**الثانى:** قولهم بجواز البداء على الله عز وجل.

ثم انتقل إلى الإمامية، وجعلهم خمس عشرة فرقة، وبدأ بالكاملية منهم فقال:

هؤلاء أتباع رجل من الرافضة، وكان يعرف بأبى كامل، وكان يزعم أن الصحابة كفروا بتركهم بيعة على، وكفر على بتركه قتالهم، وكان يلزمه قتالهم، كما لزمه قتال أصحاب صفين..

وكان بشار بن برد الشاعر الأعمى على هذا المذهب، وروى أنه قيل له: ما

---

(١) هناك رافضة الزيدية الذين رفضوا إمامة زيد بن على، وهناك رافضة الإمامية الذين رفضوا إمامة الشيخين أبى بكر وعمر.

(٢) ص٣٥.

تقول فى الصحابة؟ قال: كفروا، فقيل له: فما تقول فى على؟ فتمثل بقول الشاعر:

وما شرُّ الثلاثة أمَّ عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا[١]

وحكى أصحاب المقالات عن بشار أنه ضم إلى ضلالته فى تكفير الصحابة وتكفير علىّ معهم ضلالتين أخريين:

**إحداهما:** قوله برجعته إلى الدنيا قبل يوم القيامة كما ذهب إليه أصحاب الرجعة من الرافضة.

**الثانية:** قوله بتصويب إبليس فى تفضيل النار على الأرض، واستدلوا على ذلك بقول بشار فى شعر له:

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار[٢]

ثم ساق البغدادى مقالات فرق الخوارج وذكر ما يجمعهم فقال:

وقد اختلفوا فيما يجمع الخوارج على افتراق مذاهبها، فذكر الكعبى فى مقالاته أن الذى يجمع الخوارج على افتراق مذاهبها؛ إكفار على وعثمان، والحكمين، وأصحاب الجمل، وكل من رضى بتحكيم الحكمين.

والإكفار بارتكاب الذنوب..

ووجوب الخروج على الإمام الجائر..

وقال شيخنا أبو الحسن:

«الذين يجمعهم إكفار على وعثمان وأصحاب الجمل، ومن رضى بالتحكيم وصوّب الحكمين أو أحدهما.

والخروج على السلطان الجائر..

ولم يرض ما حكاه الكعبى من إجماعهم على تكفير مرتكبى الذنوب».

والصواب ما حكاه شيخنا أبو الحسن عنهم، وقد أخطأ الكعبى فى دعواه إجماع الخوارج على تكفير مرتكبى الذنوب منهم، وذلك أن النَّجَدات من الخوارج

(١) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم من شعراء الجاهلية ويعتب على أم عمرو أنها لم تسقه خمر الصباح وسقت صاحبيه مع أنه ليس شرًا منهم.

(٢) ص٥٤.

لا يكفرون أصحاب الحدود من موافقيهم.

وقد قال قوم من الخوارج: إن التكفير إنما يكون بالذنوب التى ليس فيها وعيد مخصوص فأما الذى فيه حد أو وعيد فى القرآن فلا يزاد صاحبه على الاسم الذى ورد فيه مثل تسميته زانيًا وسارقًا ونحو ذلك.

وقد قالت النجدات: «إن صاحب الكبيرة من موافقيهم كافر نعمة وليس فيه كفر دين...»[1].

ويلى ذلك الحديث عن فرق القدرية المعتزلة عن الحق وجعلهم عشرين فرقة يجمعها أمور هى:

**منها:** نفيها كلها عن الله عز وجل صفاته الأزلية، وقولها بأنه ليس لله عز وجل علم ولا قدرة ولا حياة ولا سمع ولا بصر، ولا صفة أزلية، وزادوا على هذا بقولهم: إن الله تعالى لم يكن له فى الأزل اسم ولا صفة.

**ومنها:** قولهم باستحالة رؤية الله عز وجل بالأبصار، وزعموا أنه لا يرى نفسه ولا يراه غيره واختلفوا فيه: هو راء لغيره أم لا؟ فأجازه قوم منهم وأباه قوم آخرون منهم.

**ومنها:** اتفاقهم على القول بحدوث كلام الله عز وجل، وحدوث أمره ونهيه وخبره، وكلهم يزعمون أن كلام الله عز وجل حادث، وأكثرهم اليوم يسمون كلامه مخلوقًا.

**ومنها:** قولهم جميعًا بأن الله تعالى غير خالق لأكساب الناس، ولا لشىء من أعمال الحيوانات، وقد زعموا أن الناس هم الذين يقدرون على أكسابهم، وأنه ليس لله عز وجل فى أكسابهم ولا فى أعمال سائر الحيوانات صنع وتقدير ولأجل هذا القول سماهم المسلمون قدرية..

**ومنها:** اتفاقهم على دعواهم فى الفاسق من أمة الإسلام بالمنزلة بين المنزلتين، وهى أنه فاسق، لا مؤمن ولا كافر، ولأجل هذا سماهم المسلمون المعتزلة لاعتزالهم قول الأمة بأسرها..

**ومنها:** قولهم إن كل ما لم يأمر الله تعالى به أو نهى عنه من أعمال العباد لم

(١) ص٧٣.

يشأ الله شيئًا منها. .

وزعم الكعبى فى مقالاته «أن المعتزلة اجتمعت على أن الله عز وجل شىء لا كالأشياء، وأنه خالق الأجسام والأعراض، وأنه خلق كل ما خلقه لا من شىء، وعلى أن العباد يفعلون أعمالهم بالقُدر التى خلقها الله سبحانه وتعالى فيهم، قال: وأجمعوا على أنه لا يغفر لمرتكبى الكبائر بلا توبة. .

وفى هذا الفصل من كلام الكعبى غلط منه على أصحابه. .»[1].

ثم أخذ البغدادى يعدد بدع كل فرقة وفضائحها، وكانت النظامية أكثر فرق المعتزلة فضائح، وهم أتباع أبى إسحق إبراهيم بن سيار المعروف بالنظام لأنه كان ينظم الكلام والشعر أو ينظم الخرز فى سوق البصرة، فذكر له إحدى وعشرين فضيحة فكرية، وبيّن المؤثرات الثقافية التى كونت فكر النظام فقال:

كان فى زمان شبابه قد عاشر قومًا من الثنوية، وقومًا من السمنية القائلين بتكافؤ الأدلة، وخالط بعد كبره قومًا من ملحدة الفلاسفة، ثم خالط هشام بن الحكم الرافضى، فأخذ عن هشام وعن ملحدة الفلاسفة قوله بإبطال الجزء الذى لا يتجزأ، ثم بنى عليه قوله بالطفرة التى لم يسبق إليها وهم أحد قبله، وأخذ من الثنوية قوله بأن فاعل العدل لا يقدر على فعل الجور والكذب. .

وأخذ عن هشام بن الحكم أيضًا قوله بأن الألوان والطعوم والروائح والأصوات أجسام، وبنى على هذه البدعة قوله بتداخل الأجسام فى حيز واحد. . ودَوّن مذاهب الثنوية وبدع الفلاسفة وشبه الملحدة فى دين الإسلام، وأعجب بقول البراهمة بإبطال النبوات ولم يجسر على إظهار هذا القول خوفًا من السيف فأنكر إعجاز القرآن فى نظمه، وأنكر ما روى من معجزات نبينا ﷺ: من انشقاق القمر وتسبيح الحصا فى يده، ونبوع الماء من بين أصابعه، ليتوصل بإنكار معجزات نبينا عليه السلام إلى إنكار نبوته.

ثم إنه استثقل أحكام شريعة الإسلام فى فروعها، ولم يجسر على إظهار دفعها فأبطل الطرق الدالة عليها، فأنكر لأجل ذلك حجة الإجماع وحجة القياس فى

(١) ص١١٤، والكعبى شيخ من شيوخ المعتزلة توفى عام ٣١٩هـ، وقد اعترض عليه البغدادى بأن هذه الأمور ليست محل إجماع المعتزلة.

الفروع الشرعية، وأنكر الحجة فى الأخبار التى لا توجب العلم الضرورى.

ثم إنه علم إجماع الصحابة على الاجتهاد فى الفروع الشرعية فذكرهم بما يقرؤه غدًا فى صحيفة مخازيه، وطعن فى فتاوى أعلام الصحابة رضى الله عنهم.

ثم انتقل البغدادى إلى بيان فرق المرجئة وتفصيل مذاهبهم، وجعلهم ثلاثة أصناف: صنف قالوا بالإرجاء فى الإيمان وبالقدر على مذهب المعتزلة.

وصنف قالوا بالإرجاء فى الإيمان وبالجبر على مذهب جهم بن صفوان.

وصنف ثالث خارجون عن القدرية والجبرية وهم المرجئة الخالصة أخروا العمل عن الإيمان، وقالوا عن الإيمان هو المعرفة بالقلب والإقرار باللسان بالله وبما جاء من عنده مما اجتمعت عليه الأمة.

وتوالى عرض البغدادى لباقى الفرق، فتكلم عن مقالات الفرق النجارية والجهمية والبكرية والضرارية، وفصّل مذاهب المشبهة وجعلهم صنفين: صنفًا شبهوا ذات البارى بذات غيره، وصنفًا شبهوا صفات البارى بصفات غيره، وقسّم كل صنف إلى فرق شتى..

* * *

**الباب الرابع: فى بيان الفرق التى انتسبت إلى الإسلام وليست منه:**

وأعقب ذلك ببيان الفرق المنتسبة إلى الإسلام والخارجة عن الملة وعدّهم عشرين فرقة يتقدمها السبئية وهم أتباع عبد الله بن سبأ الذى غلا فى على رضى الله عنه، وزعم أنه كان نبيًا، ثم غلا فيه حتى زعم أنه إله، ودعا إلى ذلك قومًا من غواة الكوفة، ورُفع خبرهم إلى على رضى الله عنه فأمر بإحراق قوم منهم فى حفرتين، حتى قال بعض الشعراء:

لِتَرم بىَ الحوادث حيث شاءت ... إذا لم ترم بى فى الحفرتين

ثم إن عليًا رضى الله عنه خاف من إحراق الباقين منهم شماتة أهل الشام، وخاف اختلاف أصحابه عليه، فنفى ابن سبأ إلى ساباط المدائن فلما قتل على رضى الله عنه زعم ابن سبأ أن المقتول لم يكن عليًا، وإنما كان شيطانًا تصور للناس فى صورة على، وأن عليًا صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى ابن مريم عليه السلام..

وتكلم البغدادى عن أصناف الحلولية ومنها الحلاجية وقال: وأما الحلاجية فمنسوبون إلى أبى المغيث الحسين بن منصور المعروف بالحلاج، وكان من أرض فارس من مدينة يقال لها البيضاء، وكان فى بدء أمره مشغولاً بكلام الصوفية، وكانت عباراته حينئذ من الجنس الذى تسميه الصوفية الشطح، وهو الذى يحتمل معينين أحدهما حسن محمود والآخر قبيح مذموم.

وكان يدعى أنواع العلوم على الخصوص والعموم، وافتتن به قوم من أهل بغداد وقوم من أهل طالقان خراسان.

وقد اختلف فيه المتكلمون والفقهاء والصوفية..

فأما المتكلمون فأكثرهم على تكفيره، وعلى أنه كان على مذهب الحلولية.

وقبله قوم من متكلمى السالمية بالبصرة ونسبوه إلى حقائق معانى الصوفية، وكان القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الأشعرى رحمه الله، نسبه إلى معاطاة الحيل والمخاريق، وذكر فى كتابه الذى أبان فيه عجز المعتزلة عن تصحيح دلائل النبوة على أصولهم مخاريق الحلاج ووجوه حيله.

واختلف الفقهاء أيضًا فى شأن الحلاج، فتوقف فيه أبو العباس بن سريج لما استفتى فى دمه، وأفتى أبو بكر محمد بن داود بجواز قتله.

واختلف فيه مشايخ الصوفية، فبرئ منه عمرو بن عثمان المكى، وأبو يعقوب الأقطع، وجماعة منهم، وقال عمرو بن عثمان: كنت أماشيه يومًا فقرأت شيئًا من القرآن فقال: يمكننى أن أقول مثل هذا..

وروى أن الحلاج مَرّ يومًا على الجنيد فقال له: أنا الحق.

فقال الجنيد: أنت بالحق أية خشبة تفسد..

فتحقق فيه ما قال الجنيد لأنه صلب بعد ذلك.

وقبله جماعة من الصوفية منهم أبو العباس بن عطاء ببغداد، وأبو عبد الله بن خفيف بفارس، وأبو القاسم النصرآبادى بنيسابور، وفارس الدينورى بناحيته.

والذين نسبوه إلى الكفر وإلى دين الحلولية حكوا عليه أنه قال: من هذب نفسه فى الطاعة، وصبر على اللذات والشهوات ارتقى إلى مقام المقربين، ثم لا يزال يصفو ويرتقى فى درجات المصافاة حتى يصفو عن البشرية، فإذا لم يبق فيه من

البشرية حظ، حَلّ فيه روح الإله الذى حل فى عيسى ابن مريم، ولم يرد حينئذ شيئًا إلا كان كما أراد، وكان جميع فعله فعل الله تعالى.

وزعموا أن الحلاج ادعى لنفسه هذه الرتبة..

ثم قال البغدادى:

والذين تولوه من الصوفية زعموا أنه كشف له أحوال من الكرامة فأظهرها للناس فعوقب بتسليط منكرى الكرامات عليه لتبقى حاله على التلبيس.

وزعم هؤلاء أن حقيقة التصوف حالٌ ظاهرها تلبيس وباطنها تقديس، واستدلوا على تقديس باطن الحلاج بما روى أنه قال عند قطع يديه ورجليه: حسب الواحد إفراد الواحد..(١)!!

* * *

وختم البغدادى هذا الباب بعرض شامل وتحليل عميق للباطنية وأساليبهم وزعمائهم، ودعوتهم ومآربهم.. الأمر الذى يجمعهم مع الماسونية الحديثة والصهيونية العالمية اليوم فى سعيها للسيطرة على العالم وإخراج الناس على أديانهم والزج بهم فى متاهات الحيرة والقلق.

**ونحن نلخص ما ذكره البغدادى على النحو التالى(٢):**

**خطر الباطنية:**

ضرر الباطنية أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس والدهرية وسائر أصناف الكفر.. بل أعظم من ضرر الدجال الذى يظهر فى آخر الزمان.

لأن الذين ضلوا عن الدين بدعوة الباطنية من وقت ظهور دعوتهم إلى يومنا

---

(١) ص٢٦٠، ٢٦٤.

(٢) ذكر الشهرستانى فى كتابه (الملل والنحل) أن الإسماعيلية من الشيعة أثبتوا الإمامة لإسماعيل بن جعفر ومن بعده لمحمد بن إسماعيل السابع التام، وبه انتهى عهد الأئمة الظاهرين وبدأ عهد الأئمة المستورين، وأشهر ألقابهم الباطنية لأنهم قالوا: إن لكل ظاهر باطنًا ولكل تنزيل تأويلاً، ولهم ألقاب أخرى كثيرة على لسان كل قوم، فبالعراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية، وفى خراسان يسمون التعليمية والملحدة، وهم يقولون نحن الإسماعيلية لأننا تميزنا بهذا الاسم وهذا الشخص.

أكثر من الذين يضلون بالدجال وقت ظهوره، لأن فتنه الدجال لا تزيد مدتها على أربعين يومًا وفضائح الباطنية أكثر من عدد الرمل والقطر . .

**المؤسسون للباطنية:**

ميمون بن دَيْصان المعروف بالقداح وكان مولى لجعفر بن محمد الصادق. وكان من الأهواز.

ومحمد بن الحسين الملقب بدندان . .

وحمدان قِرْمط لقب بذلك لقرمطة فى خطه أو فى خطوه، ومن سواد الكوفة.

وأبو سعيد الجنابى، وتغلب على البحرين.

وتوالى ظهور زعمائهم فى المغرب ومصر وفارس وما وراء النهر . . .

ويقال إن دعوة الباطنية ظهرت أولاً فى زمان المأمون وانتشرت فى زمان المعتصم، ودخل فى دعوة الباطنية «الأفشين» صاحب المعتصم وصاحب جيشه ودلهم على عورات عساكر المسلمين وتوانى فى القتال ضد الباطنية ودامت الحرب بين الفريقين سنين كثيرة.

**فكر الباطنية:**

الذين وضعوا دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس العابدين للنار والقائلين بإلهين هما النور والظلمة . .

وقد احتالوا على المسلمين فقالوا ينبغى أن تجمر المساجد كلها، وزين البرامكة للرشيد أن يتخذ فى جوف الكعبة مجمرة يتبخر عليها العود أبدًا، فعلم الرشيد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار فى الكعبة فكان ذلك أحد أسباب القبض على البرامكة.

ويتأولون أحكام الشريعة على مثل أحكام المجوس، فزعموا أن الصلاة معناها موالاة إمامهم، وأن الحج زيارته وإدمان خدمته، وأن الصوم إمساك عن إفشاء سر الإمام. . وأن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها وتأولوا فى ذلك قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ**﴾ [الحجر:٦٩] وحملوا اليقين على معرفة التأويل.

وتأولوا الملائكة على دعاتهم، وتأولوا الشياطين على مخالفيهم.

وأباحوا لأتباعهم نكاح البنات والأخوات وشرب الخمر وجميع اللذات وهم

يشككون الناس فى القرآن والتوراة والزبور والإنجيل، ويدعون إلى إنكار المعاد والنشور من القبور، ويقولون بقدم العالم ويجحدون الصانع، ويرون الجنة ونعيمها فى هذه الدنيا ولذاتها، وهدفهم الأساسى هو إعادة الدولة المجوسية والاستيلاء على الأرض كلها وهم يعتمدون على علم التنجيم وحسابات الفلك.

**إفساد الباطنية فى الأرض:**

فى كل مكان حل فيه الباطنية أزهقوا الأرواح واستباحوا الحرمات وأحرقوا المساجد والمصاحف..

وعلى سبيل المثال فقد ظهرت فتنة سليمان بن الحسن فى سنة إحدى عشرة وثلاثمائة للهجرة فقتل أمير البصرة ونقل أموالهم إلى البحرين وفى سنة اثنتى عشرة وثلاثمائة وقع الحجيج فى نهب لعشر بقين من المحرم، وقتل أكثر الحجيج وسبيت النساء والذرارى، ثم دخل الكوفة فى سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة فقتل الناس وانتهب الأموال..

وفى سنة سبع عشرة وثلاثمائة دخل مكة وقتل من وجده فى الطواف، وقيل إنه قتل بها ثلاث آلاف وأخرج منها سبعمائة بكر، واقتلع الحجر الأسود وحمله إلى البحرين ثم رُدَّ منها إلى الكوفة، ورد بعد ذلك من الكوفة إلى مكة على يد أبى إسحق إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكى النيسابورى فى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة..

وقصد سليمان بن الحسن بغداد فى سنة ثمانى عشرة وثلاثمائة فلما ورد مكانًا يسمى «هيف» رمته امرأة من سطح بيتها بلبنة على رأسه فقتلته، وقتيل النساء أخس قتيل وأهون فقيد..

وظهر بعد سليمان غلام عرف بابن أبى زكريا الطامى ـ أطاعه أهل البحرين والأحساء، سن لأتباعه اللواط وأوجب قتل الغلام الذى يمتنع على من يريد الفجور به، وأمر بقطع يد من أطفأ نارًا بيده، وبقطع لسان من أطفأها بنفخة..

**أساليب الباطنية:**

للباطنية حيل فى اصطياد الناس إلى بدعتهم هى:

١ـ التفرس.

٢ـ التأنيس.
٣ـ التشكيك.
٤ـ التعليق.
٥ـ الربط.
٦ـ التدليس.
٧ـ التأسيس.
٨ـ المواثيق.
٩ـ الخلع والسلخ.

فمن شرط الداعى إلى بدعتهم أن يكون قويًا على التلبيس وعارفًا بوجوه تأويل الظواهر، ومميزًا بين من يطمع فى إغوائه وبين من لا مطمع فيه.. ومن شرط الداعى أن يعرف لكل صنف من الناس وجهًا يدعى منه إلى مذهب الباطنية.. فمن كان عابدًا حمله على العبادة ثم سأله عن معانى العبادات وعلل الفرائض وشكك فيها.

ومن رآه ذا مجون وخلاعة دفعه إلى مزيد منها..

ودرجة التأنيس قريبة من درجة التفرس وهى تزيين ما عليه الإنسان من مذهبه فى عينه ثم سؤاله بعد ذلك عن تأويل ما هو عليه وتشكيكه إياه فى أصول دينه.

فإذا سأله المدعو عن ذلك قال: علم ذلك عند الإمام ووصل بذلك منه إلى درجة التشكيك حتى يصير المدعو إلى اعتقاد أن المراد بالظاهر والسنن غير مقتضاها فى اللغة وهان عليه بذلك ارتكاب المحظورات وترك العبادات..

والربط عندهم هو تعليق نفس المدعو بطلب تأويل أركان الشريعة فإما أن يقبل منهم تأويلها على وجه يؤول إلى رفعها وإما أن يبقى على الشك والحيرة فيها. ودرجة التدليس منهم قولهم للغر الجاهل إن الظواهر عذاب وباطنها رحمة.. فإذا سألهم الغر عن تأويل الباطن قالوا: جرت سنة الله تعالى فى أخذ العهد والميثاق على رسله.. وقرأوا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

فإذا حلف الغر لهم بالأيمان المغلظة فقد ربطوه بها وذكروا له من تأويل

الظواهر ما يؤدى إلى رفعها . .

فإن قبل الأحمق ذلك منهم دخل فى دين الزنادقة باطنًا واستتر بالإسلام ظاهرًا، وخلع وانسلخ عن توحيد ربه وصار كافرًا زنديقًا.

وإن نفر الحالف عن اعتقاد تأويلات الباطنية كتمها عليهم التزامًا بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ [النحل: ٩١].

* * *

**الباب الخامس: فى بيان أوصاف الفرقة الناجية وأصنافها وأصولها:**

وقسم البغدادى أهل السنة والجماعة إلى ثمانية أصناف هى:

١- صنف أحاطوا علمًا بأبواب التوحيد والنبوة وتبرأوا من التشبيه والتعطيل . .

٢- أئمة الفقه من فريقى الرأى والحديث.

٣- أهل الأخبار والسنن المأثورة عن النبى ﷺ.

٤- علماء النحو والأدب والتصريف.

٥- علماء القراءات والتفسير.

٦- الزهاد الصوفية الذين أبصروا فأقصروا، واختبروا فاعتبروا، ورضوا بالمقدور وقنعوا بالميسور، وجرى كلامهم فى طريقى العبارة والإشارة على سمت أهل الحديث . .

٧- المرابطون فى ثغور المسلمين . .

٨- عامة البلدان التى غلب فيها شعار أهل السنة . .

ثم حدد البغدادى أصول أهل السنة التى اجتمع عليها كل هذه الأصناف، وهى:

* التبرى من القدر والاعتزال، والتشبيه والتعطيل.

* إثبات رؤية الله تعالى بالأبصار، والحشر من القبر، وسؤال القبر وعذابه ونعيمه، وإثبات الحوض والصراط والشفاعة وغفران الذنوب دون الشرك.

* كلام الله صفة أزلية غير مخلوق ولا محدث ولا حادث.

* دوام نعيم الجنة على أهلها ودوام عذاب النار على الكفرة.

* إمامة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى، وحسن الثناء على السلف الصالح.

* وجوب الجمعة خلف الأئمة الذين تبرأوا من أهل الأهواء الضالة . .
* وجوب استنباط أحكام الشريعة من القرآن والسنة وإجماع الصحابة .
* من مات حتف أنفه أو قتل فإنما مات بأجله .
* جواز المسح على الخفين .
* من أكل شيئًا أو شربه فإنما تناول رزقه حلالاً كان أو حرامًا .
* تحريم المتعة .
* الإيمان برفع عيسى إلى السماء ونزوله إلى الأرض بعد خروج الدجال .
* وقوع الطلاق الثلاث .
* الحوادث قبل حدوثها لم تكن أشياء ولا أعيانًا ولا جواهر ولا أعراضًا .
* وجوب طاعة السلطان فيما ليس بمعصية .

وللبغدادى فى ذلك تفصيلات كثيرة، وذكر أن أهل السنة أجمعوا على إيمان المهاجرين والأنصار من الصحابة، وأن الذين ارتدوا بعد وفاة النبى ﷺ لم يكونوا من الأنصار ولا من المهاجرين قبل فتح مكة، وأجمعوا على أن من شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ من أهل الجنة وكذلك كل من شهد معه أحدًا غير قُزْمان[1] الذى استثناه الخبر، وكذلك كل من شهد معه بيعة الرضوان .

ويوجب أهل السنة على أنفسهم الدعاء لمن سلف من هذه الأمة كما أمر الله تعالى فى كتابه حيث قال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وجعل البغدادى أول المتكلمين من الصحابة على بن أبى طالب حين ناظر الخوارج فى مسائل الوعد والوعيد، وناظر القدرية فى المشيئة والاستطاعة، ثم عبد الله بن عمر حيث تبرأ من معبد الجهنى فى نفية القدر . .

وأول المتكلمين من التابعين عمر بن عبد العزيز وله رسالة بليغة فى الرد على القدرية .

ثم زيد بن على زين العابدين، ثم الحسن البصرى، ثم الشعبى ثم الزهرى

(١) قاتل قتالاً شديدًا يوم أُحُد، لكن قتاله كان حمية جاهلية، ولما اشتدت به الجراح أخذ سهمًا من كنانته فقتل نفسه، وكان رسول الله ﷺ إذا ذكر قزمان قال: إنه من أهل النار .

ولهم جميعًا مواقف ضد القدرية. . وأول المتكلمين من الفقهاء وأرباب المذاهب أبو حنيفة والشافعى، فلأبى حنيفة كتاب «الفقه الأكبر» وللشافعى كتاب تصحيح النبوة والرد على البراهمة.

وختم البغدادى كتابه ببيان آثار أهل السنة فى الدين والدنيا وذكر مفاخرهم فيها. . من المؤلفات الباقية والمساجد العامرة والقصور الباهرة والمدن الزاخرة بالمدارس والمصانع والمستشفيات. .

وبعد ـ فقد كتب البغدادى سجلاً حافلاً بآراء الفرق الإسلامية وحفظ لنا تراثًا ضخمًا لهذه الجماعات. .

ونلاحظ أن البغدادى التزم بنص العدد الوارد فى تعداد الفرق فأوقعه ذلك فى قبض وبسط وتكلف عسير. .

وكان البغدادى مسرفًا فى التكفير، حتى إنه حكى عن أصحاب الشافعى أنهم قالوا بأن حكم القدرية المعتزلة هو حكم المجوس، وعلى هذا يجوز أخذ الجزية منهم.

وقال بعض الأصحاب أن حكمهم حكم المرتدين فلا تؤخذ منهم جزية بل يستتابون فإن تابوا وإلا وجب قتلهم(١). .

وإن بعض الآراء التى ذكرها البغدادى لأصول أهل السنة يمكن مناقشتها ولا تعد ركنًا من أركان الدين، ويجوز حولها الخلاف والاجتهاد(٢). .

* * *

---

(١) ص٣٥٨.

(٢) راجع ما فصلناه حول الاجتهاد فى العقيدة وأصول الإسلام فى كتابنا (قضية التكفير فى الفكر الإسلامى) ط. مكتبة الإيمان.

## الفرق الإسلامية فى كتاب الملل والنحل

يقدم كتاب «الملل والنحل» أديان النبوة والوثنية والفلسفة، كما يراها أصحابها دون نقد لها أو تعصب عليها. .

وجعل الملل عنوانًا للأديان التى لها صلة بالوحى الإلهى، وجعل النحل عنوانًا للأديان التى لا صلة لها بالوحى الإلهى. .

ومن خلال عرض الأديان يبين الفرق التى انقسم إليها أهل كل دين. .

ومؤلف الكتاب هو الإمام أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد المعروف بالشهرستانى، نسبة إلى موطنه «شهرستان»، وقد ولد عام ٤٦٩هـ على الراجح وتوفى عام ٥٤٨هـ.

وقبل الخوض فى بيان مقالات أهل الأديان ذكر خمس مقدمات هى:

**المقدمة الأولى**: فى بيان أقسام أهل العالم جملة مرسلة.

**المقدمة الثانية**: فى تعيين قانون يبنى عليه تعديد الفرق الإسلامية.

**المقدمة الثالثة**: فى بيان أول شبهة وقعت فى الخليقة، ومَنْ مصدرها ومن مظهرها؟

**المقدمة الرابعة**: فى بيان أول شبهة وقعت فى الملة الإسلامية، وكيفية انشعابها، ومن مصدرها ومن مظهرها؟

**المقدمة الخامسة**: فى بيان السبب الذى أوجب ترتيب هذا الكتاب على طريق الحساب. .

وفى دراسته للإسلام والمسلمين، التى افتتح بها كتابه - حدد أربع قواعد كضابط لتعديد الفرق الإسلامية، وهى:

**القاعدة الأولى**: الصفات والتوحيد فيها.

**القاعدة الثانية**: القدر والعدل فيه.

**القاعدة الثالثة**: الوعد والوعيد والأسماء والأحكام.

**القاعدة الرابعة**: السمع والعقل والرسالة والإمامة.

ثم جعل الشهرستانى كبار الفرق الإسلامية أربعًا هى:

١ـ القدرية.

٢ـ الصفاتية.

٣ـ الخوارج.

٤ـ الشيعة.

وبانشعاب هذه الفرق إلى أصناف وطوائف أوصلها الشهرستانى إلى ثلاث وسبعين فرقة..

وتوالى بعد ذلك سبعة فصول، وهكذا:

**الفصل الأول: المعتزلة:**

ذكر الشهرستانى ألقابهم وما يجمعهم من الاعتقاد، وقسمهم إلى اثنتى عشرة فرقة هى:

١ـ الواصلية نسبة إلى أبى حذيفة واصل بن عطاء الغزال الألثغ، (٨٠ ـ ١٣١هـ).

٢ـ الهُذَيْلية: أصحاب أبى الهذيل حمدان بن الهذيل العلاف (١٣٥ـ ٢٢٦هـ).

٣ـ النَّظامية: أصحاب إبراهيم بن سيار بن هانئ النظام، سمى نظَّامًا لأنه كان ينظم الكلام المنثور والشعر الموزون، وقيل لأنه كان ينظم الخرز فى سوق البصرة، توفى عام ٢٣١هـ.

٤ـ الحابطية والحَدْثية: أصحاب كل من أحمد بن خابط (ت٢٣٢هـ)، والفضل الحَدْثى (ت ٢٥٧هـ).

٥ـ البشرية: أصحاب بشر بن المعتمر (ت ٢٢٦هـ).

٦ـ المعمَّرية: أصحاب مُعَمَّر بن عباد السلمى (ت ٢٢٠هـ).

٧ـ المردارية: أصحاب عيسى بن صبيح المكنى بأبى موسى، والملقب بالمردار (ت ٢٢٦هـ).

٨ـ الثُّمامية: أصحاب ثمامة بن أشرس النميرى (ت ٢١٣هـ).

٩ـ الهشامية: أصحاب هشام بن عمرو، الفوطى (ت ٢٢٦هـ).

١٠ـ الجاحظية: أصحاب عمرو بن بحر أبى عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ).

١١ـ الخياطية والكعبية: أصحاب أبى الحسن بن أبى عمرو الخياط (ت ٣٠٠هـ). أستاذ أبى القاسم بن محمد الكعبى (ت ٣١٩هـ).

١٢ـ الجبائية والبهشمية: أصحاب أبى محمد عبد الوهاب الجبائى (ت ٢٩٥هـ) وابنه أبى هاشم عبد السلام (ت ٣٢١هـ).

وقد ذكر الشهرستانى ما انفردت به كل فرقة من مسائل فى إطار مذهب الاعتزال.

**الفصل الثانى: الجبرية:**

عرّف الشهرستانى الجبر بأنه نفى الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى.. وقسمهم إلى ثلاث فرق، هى:

١ـ الجهمية: أصحاب جهم بن صفوان الذى قتله خالد بن عبد الله القسرى عام ١٢٤هـ.

٢ـ النجارية: أصحاب الحسين بن محمد النجار (ت ٢٣٠هـ).

٣ـ الضرارية: أصحاب ضرار بن عمرو وحفص الفرد.

**الفصل الثالث: الصفاتية:**

أراد الشهرستانى بالصفاتية الذين يثبتون الصفات لله تعالى سواء كانت صفات ذاتية أو صفات فعلية أو صفات خبرية، وقسمهم إلى ثلاث فرق هى:

١ـ الأشعرية: أصحاب أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى (ت ٣٢٤هـ).

٢ـ المشبهة: وهم جماعة من الشيعة الغالية، وجماعة من أصحاب الحديث الحَشْوية[1].

٣ـ الكرامية: أصحاب أبى عبد الله محمد بن كرام من سجستان (ت ٢٥٥هـ)، وكان ممن يثبت الصفات إلا أنه ينتهى فيها إلى التجسيم والتشبيه.

**الفصل الرابع: الخوارج:**

عرفهم الشهرستانى بأنهم الخارجون على الإمام الحق الذى اتفقت الجماعة

---

(١) الحَش ـ بفتح الحاء وضمها ـ: البستان والكنيف، والجمع حشوش، والحشوية ـ بفتح الشين وسكونها ـ نسبة إلى الحش أو الحشو وهو من الكلام ما لا خير فيه، أو الحشا وهو ما كان داخل البطن.

عليه، سواء كان الخروج أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان، والأئمة فى كل زمان. .

وكبار فرق الخوارج ثمانية، هى:

١ـ المحكمة الأولى: وهم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه، حين جرى أمر المحكمين، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، ورأسهم عبد الله ابن الكواء، وعتاب بن الأعور، وعبد الله بن وهب الراسبى وعروة بن جرير، ويزيد بن أبى عاصم المحاربى، وحرقوص بن زهير البجلى المعروف بذى الثدية. . وكان يومئذٍ فى اثنى عشر ألف رجل، أهل صلاة وصيام، أعنى يوم النهروان.

وفيهم قال النبى ﷺ: «تحقُر صلاةُ أحدكم فى جنب صلاتهم، وصوم أحدكم فى جنب صيامهم ولكن لا يجاوز إيمانهم تراقيهم».

٢ـ الأزارقة: أصحاب أبى راشد نافع بن الأزرق (ت ٦٠هـ) وهم الذين خرجوا مع نافع من البصرة إلى الأهواز فغلبوا عليها وما وراءها من بلدان فارس وكرمان أيام عبد الله بن الزبير، وقتلوا عماله بهذه النواحى.

٣ـ النَّجَدات العاذرية: أصحاب نجدة بن عامر الحنفى قتله أصحابه عام ٦٩هـ.

٤ـ البيهسية: أصحاب أبى بيهس الهيصم بن جابر، وهو أحد بنى سعد بن ضبيعة، وقد كان الحجاج طلبه أيام الوليد فهرب إلى المدينة، فطلبه بها عثمان بن حيان المزنى فظفر به وحبسه وكان يسامره إلى أن ورد كتاب الوليد بأن يقطع يديه ورجليه ثم يقتله ففعل به ذلك. .

٥ـ العجاردة: أصحاب عبد الكريم بن عجرد. . وهم أصناف ولكل صنف مذهب. .

٦ـ الثعالبة: أصحاب ثعلبة بن عامر. .

٧ـ الإباضية: أصحاب عبد الله بن إباض الذى خرج فى أيام مروان بن محمد. . وهم جماعة متفرقون فى مذاهبهم تفرق الثعالبة والعجاردة.

٨ـ الصُفْرية الزيادية: أصحاب زياد بن الأصفر.

وعقب كل فرقة من هذه الفرق ساق الشهرستانى ما انفردوا به من آراء وأفكار وعقائد. .

**الفصل الخامس: المرجئة:**

والإرجاء على معنيين: أحدهما بمعني التأخير كما في قوله تعالى: ﴿ **قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ** ﴾ [الاعراف: ١١١] أي أمهله وأخره.

والثانى: إعطاء الرجاء..

وإطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول صحيح لأنهم كانوا يؤخرون العمل على النية والعقد أو يؤخرون حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة.

وأما بالمعنى الثانى فظاهر فإنهم كانوا يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

وقسمهم الشهرستانى إلى ست فرق هى:

١ـ اليونسية.

٢ـ العبيدية.

٣ـ الغسانية.

٤ـ الثوبانية.

٥ـ التومانية.

٦ـ الصالحية.

**الفصل السادس: الشيعة:**

وهم الذين شايعوا عليًا رضى الله عنه وقالوا بإمامته وخلافته نصًا ووصية، إما جليًا وإما خفيًا، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده..

وقالوا: ليست الإمامية قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم، بل هى قضية أصولية، وهى ركن الدين لا يجوز للرسل عليهم السلام إغفاله وإهماله، ولا تفويضه إلى العامة..

وجعل الشهرستاني كبار فرق الشيعة خمسًا هى:

١ـ الكيسانية.

٢ـ الزيدية.

٣ـ الإمامية.

٤ـ الغلاة.

٥ـ الإسماعيلية.

وساق تحت كل فرقة طوائفها التى تشاركها فى إطارها العام ثم تنفرد بمسائل تخصها.. وقال: إن بعض الشيعة يميل فى الأصول إلى الاعتزال، وبعضهم إلى السنة وبعضهم إلى التشبيه..

**الفصل السابع: أهل الفروع:**

وهم المختلفون فى الأحكام الشرعية والمسائل الاجتهادية..

وذكر الشهرستانى أن أصول الاجتهاد وأركانه أربعة:

الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس.

وأرجعها بعد ذلك إلى اثنين هما الكتاب والسنة لأن الإجماع لا يخلو من نص خفىّ أو جلىّ لأنا على القطع نعلم أن الصدر الأول لا يجتمعون على أمر إلا عن تثبت وتوقيف حتى لا يؤدى إلى إثبات أحكام مرسله..

والقياس مستند إلى نص مخصوص فى جواز الاجتهاد ثم إن الحوادث والوقائع غير متناهية ولا تقبل الحصر والعد، ولم يرد فى كل حادثة نص فعلم قطعًا أن القياس واجب الاعتبار.. حتى يكون بصدد كل حادثة الاجتهاد ثم لا يجوز أن يكون الاجتهاد مرسلاً خارجًا عن ضبط الشرع، فإن القياس المرسل شرع آخر..

فرجعت الأصول الأربعة فى الحقيقة إلى اثنين، وربما ترجع إلى واحد وهو قول الله تعالى.

ثم ساق الشهرستانى شرائط الاجتهاد وأحكام المجتهدين فى الأصول والفروع وقال: وللأصوليين خلاف فى تكفير أهل الأهواء مع قطعهم بأن المصيب واحد بعينه، لأن التكفير حكم شرعى، والتصويب حكم عقلى..

فمن مبالغ متعصب لمذهبه كفر وضلل مخالفه.

ومن متساهل متألف لم يكفر.

ومن كفّر قرن كل مذهب ومقالة بمقالة واحد من أهل الأهواء والملل، كتقرين القدرية بالمجوس، وتقرين المشبهة باليهود، وتقرين الرافضة بالنصارى، وأجرى حكم هؤلاء فيهم من المناكحة وأكل الذبيحة.

ومن تساهل ولم يكفر قضى بالتضليل، وحكم بأنهم هلكى فى الآخرة واختلفوا فى اللعن على حسب اختلافهم فى التكفير والتضليل..

وكذلك من خرج على الإمام الحق بغيًا وعدوانًا، فإن كان صدر خروجه عن تأويل واجتهاد سمى باغيًا مخطئًا.

ثم البغى: هل يوجب اللعن؟

فعند أهل السنة: إذا لم يخرج بالبغى عن الإيمان لم يستوجب اللعن.

وعند المعتزلة: يستحق اللعن بحكم فسقه، والفاسق خارج عن الإيمان.

وإن كان صدر خروجه عن البغى والحسد والمروق عن الدين فإجماع المسلمين: استحق اللعن باللسان، والقتل بالسيف والسنان..

ثم تكلم الشهرستانى عن حكم المجتهدين فى الفروع:

فمن الأصوليين من قال: كل مجتهد مصيب فى الحكم.

ومنهم من قال: إن المصيب واحد فقط وهؤلاء قسمان:

قسم قال: المصيب واحد بعينه وهو المتمسك بالخبر الصحيح والنص الظاهر ومن عداه مخطئ بعينه.

وقسم قال: المصيب واحد لا بعينه..

وفى النهاية ذكر الشهرستانى أن الاجتهاد من فروض الكفايات إذا اشتغل بتحصيله واحد سقط الفرض عن الجميع وإن قصّر فيه أهل عصر عصوا بتركه وأشرفوا على خطر عظيم..

**وصنف المجتهدين إلى نوعين لا ثالث لهما:**

* **أصحاب الحديث** وعنايتهم بتحصيل الأحاديث ونقل الأخبار وبناء الأحكام على النصوص ولا يرجعون إلى القياس ما وجدوا خبرًا أو أثرًا.

* **أصحاب الرأى** وأكثر عنايتهم بتحصيل وجه القياس، والمعنى المستنبط من الأحكام، وبناء الحوادث عليها، وربما يقدمون القياس الجلى على آحاد الأخبار..

* * *

هذا وقد التزم الشهرستانى بشرطه الذى قطعه على نفسه وهو أن يورد مذهب كل فرقة على ما وجده فى كتبهم، من غير تعصب لهم ولا كسر عليهم، دون أن

يبين صحيحه من فاسده ويعين حقه من باطله، وإن كان لا يخفى على الأفهام الذكية فى مدارج الدلائل العقلية لمحات الحق ونفحات الباطل. .[١].

فإن الشهرستانى لم يناقش الآراء كلها ولم يسق الأدلة للفرقاء ويرجح بينها وإن كانت له إشارات مفهمة تبين رأيه وتوضح فكره، وله أحكام بالتصويب والتخطئة بشكل عام لا تخرجه عما التزم به من إيراد مذهب كل فرقة على ما وجده فى كتبهم. .

وهذا هو بيت القصيد فلم ينسب مقالة لغير أصحابها ولم يسند رأيًا لغير قائله. .

وعلى سبيل المثال قال عن محمد بن كرام[٢]:

ونبغ رجل متنمس[٣] بالزهد من سجستان، يقال له أبو عبد الله محمد بن كرام، قليل العلم، قد قمش[٤] من كل مذهب ضغثًا[٥]، وأثبته فى كتابه، وروجه على أغتام[٦] غرجة، وغور، وسواد بلاد خراسان، فانتظم ناموسه وصار ذلك مذهبًا. . ».

وقال عن واصل بن عطاء[٧]:

والعجب أنه حمل هذا اللفظ الوارد فى الخبر [أن تؤمن بالقدر خيره وشره] على البلاء والعافية والشدة والرخاء، والمرض والشفاء والموت والحياة إلى غير ذلك من أفعال الله تعالى دون الخير والشر، والحسن والقبيح الصادرين من اكتساب العباد.

وقال عن ثمامة بن أشرس المعتزلى[٨]:

---

(١) راجع ص١٤ .
(٢) ص٣١ .
(٣) متستر .
(٤) أخذ أسوأ ما فيه .
(٥) الباطل .
(٦) الرعاع .
(٧) ص٤٧ .
(٨) ص٧١ .

وحكى ابن الراوندى عنه أنه قال: **العالم فعل الله تعالى بطباعه**، ولعله أراد بذلك ما تريده الفلاسفة من الإيجاب بالذات دون **الإيجاد على مقتضى الإرادة**، لكن يلزمه على اعتقاده ذلك ما لزم الفلاسفة من القول **بقدم العالم إذ الموجَب لا** ينفك عن الموجِب.

وقال عن المحكمة الأولى من الخوارج[1]:

وقد كذبوا على علىّ رضى الله عنه من وجهين:

**أحدهما**: فى التحكيم: أنه حكم الرجال، وليس ذلك صدقًا، **لأنهم هم الذين** حملوه على التحكيم.

**والثانى**: أن تحكيم الرجال جائز، فإن **القوم هم الحاكمون فى هذه المسألة، وهم** رجال، ولهذا قال علىّ رضى الله عنه: «**كلمة حق أريد بها باطل**».

فهذا قد يسير، وتلميح عارض، لا يقدح **فى منهج الإمام الشهرستانى**..

* * *

(١) ص١١٦.

# الفرق الإسلامية فى كتاب البداية والنهاية

كتاب «البداية والنهاية» من كتب التاريخ العام التى استوعبت الماضى والحاضر والمستقبل . .

ألفه الإمام المفسر، والمحدث، والفقيه، والمؤرخ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير، المتوفى عام ٧٧٤هـ الموافق ١٣٧٣م . . حدد المؤلف موضوع كتابه فقال فى مقدمته[١]:

فهذا كتاب أذكر فيه بعون الله وحسن توفيقه ـ ما يسره الله تعالى بحوله وقوته، من ذكر مبدأ المخلوقات، من خلق العرش والكرسى، والسموات والأرض، وما فيهن، وما بينهن من الملائكة والجان والشياطين، وكيفية خلق آدم عليه السلام . .

وقصص النبيين، وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بنى إسرائيل وأيام الجاهلية، حتى تنتهى النبوة إلى أيام نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه، فنذكر سيرته كما ينبغى، فتشفى الصدور والغليل، وتزيح الداء عن العليل . .

ثم نذكر ما بعد ذلك إلى زماننا . .

ونذكر الفتن والملاحم وأشراط الساعة، ثم البعث والنشور وأهوال القيامة، ثم صفة ذلك، وما فى ذلك اليوم، وما يقع من الأمور الهائلة، ثم صفة النار، ثم صفة الجنان وما فيها من الخيرات الحسان، وغير ذلك وما يتعلق به . .».

وكان منهج المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ الاعتماد على الكتاب والسنة، والآثار والأخبار المنقولة المقبولة عند العلماء، مما صح نقله أو حسن . .

وأخذ على نفسه عهدًا أن يبين الضعيف، ويرفض الإسرائيليات المخالفة للكتاب والسنة وقال: ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع فى نقله، مما لا يخالف كتاب الله وسنة ورسوله ﷺ، وهو القسم الذى لا يصدق ولا يكذب، مما فيه بسط لمختصر عندنا، أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا، مما لا فائدة فى تعيينه لنا.

فنذكره على سبيل التحلى به، لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه . .».

---

(١) ص٦، جـ١ تحقيق محمد عبد العزيز النجار ط١ ـ مطبعة الفجالة الجديدة بالقاهرة.

وإذا طوينا أجزاء الكتاب الأولى، ووصلنا إلى بداية التاريخ الإسلامى، ووقفنا تحديداً على موضوع الفرق الإسلامية، فإنه يبدأ من الفصل الذى تحدث فيه ابن كثير عن الخطبة الفصيحة التى ألقاها رسول الله ﷺ فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة عام حجة الوداع وكان يوم الأحد، عند ماء يقال له «غدير خم» تحت شجرة هناك.

**حديث غدير خم:**

أورد ابن كثير عيون الأحاديث الواردة فى خطبة رسول الله ﷺ عند «غدير خم» قريبًا من الجحفة[١] مرجعه من حجة الوداع.

وبين ما فيها من صحيح وضعيف، وأكد أنه لا حظ للشيعة فى هذا الموضوع ولا متمسك لهم ولا دليل..

وبدأ ببيان سبب الحديث وساق رواية يزيد بن ركانة قال[٢]: لما أقبل علىّ من اليمن ليلقى رسول الله ﷺ بمكة، تعجل إلى رسول الله، واستخلف على جنده الذين معه رجلاً من أصحابه، فعمد ذلك الرجل فكسى كل رجل من القوم حلة من البز[٣] الذى كان مع علىّ.

فلما دنا جيشه خرج ليلقاهم فإذا عليهم الحلل، قال: ويلك ما هذا؟ قال: كسوت القوم ليتجملوا به إذا قدموا فى الناس.

قال: ويلك: انزع قبل أن ينتهى به إلى رسول الله ﷺ.

قال: فانتزع الحلل من الناس فردها فى البز..

قال: وأظهر الجيش شكواه لما صنع بهم...»

وفى رواية عن أبى سعيد الخدرى:

اشتكى الناس عليًا فقام رسول الله ﷺ فينا خطيبًا..

وفى رواية عن بريدة قال:

غزوت مع علىّ اليمن فرأيت منه جفوة، فلما قدمت على رسول الله ﷺ

---

(١) ميقات أهل الشام، قريبًا من رابغ، تبعد عن مكة ١٨٦ كم.

(٢) ص٢٠٨ جـ٥ ـ تحقيق وطباعة مكتبة المعارف ـ بيروت.

(٣) البز: نوع من الثياب الجيدة.

ذكرت عليًا فتنقصته، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يتغير، فقال: يا بريدة ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟!

قلت: بلى يا رسول الله.

قال: من كنت مولاه فعلىّ مولاه.

وفى رواية: كأنى قد دعيت فأجبت، إنى قد تركت فيكم الثَّقَلَين، كتاب الله وعترتى أهل بيتى، فانظروا كيف تخلفونى فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض.. ثم قال:

الله مولاى، وأنا ولى كل مؤمن، ثم أخذ بيد علىّ فقال: من كنت مولاه فهذا وليه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه..».

**من دلائل النبوة:**

أفرد ابن كثير بابًا من دلائل النبوة فى إخباره ﷺ عن الغيوب المستقبلية، واهتم بأحاديث الفتن الواقعة فى آخر أيام عثمان بن عفان وخلافة على بن أبى طالب، وساق حديث الصحيحين عن أسامة بن زيد:

أشرف رسول الله ﷺ على أطم[1] من آطام المدينة فقال: هل ترون ما أرى؟ إنى لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر».

وساق حديث الإمام أحمد بسنده عن عائشة:

أن رسول الله ﷺ قال لنا ذات يوم: «كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب»[2].

وساق حديث عبد الرزاق أن الرسول ﷺ قال للزبير بن العوام: أتحب عليًا يا زبير؟ قال: وما يمنعنى؟ قال: فكيف بك إذا قاتلته وأنت ظالم له؟!

وساق ابن كثير أخبارًا نبوية عن الحكمين اللذين بعثا فى زمن علىّ، وعن الخوارج وقتالهم، وعن مقتل على بن أبى طالب، وعن سيادة الحسين بن على فى تركه الأمر لمعاوية، وعن مقتل الحسين بن على، وعن وقعة الحرة التى كانت فى زمن يزيد..

(١) الأطم: الحصن والبيت المرتفع.

(٢) الحوأب: بئر ماء مرت به السيدة عائشة فى طريقها إلى البصرة للمطالبة بدم عثمان.

ثم حقق القول فى حديث البخارى:

يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش.

ورفض دعوى الرافضة بأنهم أئمتهم الاثنا عشر، وقال: فإن هؤلاء الذين يزعمون لم يل أمور الناس منهم إلا علىّ بن أبى طالب وابنه الحسن، وآخرهم فى زعمهم المهدى، المنتظر فى زعمهم بسرداب سامرا، وليس له وجود ولا عين ولا أثر[1].

**بيعة الخلفاء الراشدين:**

فصل ابن كثير الحديث عن موقف الصحابة فى مرض رسول الله ﷺ ووفاته وما تلى ذلك من قصة سقيفة بنى ساعدة، وحقق القول فى بيعة على بن أبى طالب للصديق فى أول يوم أو فى اليوم الثانى من وفاة المصطفى ﷺ.

وأفاض فى تاريخ الصديق ثم الفاروق حتى مقتله على يدى أبى لؤلؤة المجوسى، ثم خلافة عثمان بن عفان بدءًا من عام أربعة وعشرين للهجرة، ورفض ما يقوله أغبياء القصاص وكذبة الروافض من أن عليًا كانت له اعتراضات على بيعة عثمان..

ثم فصل ابن كثير المآخذ التى أخذت على سيدنا عثمان، وخرجها التخريج المناسب لفضله وسبقه فى الإسلام، وساق طرقًا عديدة من الروايات التى تبين مواجهة عثمان للخارجين عليه، وتفسيره لمواقفه التى غضبوا فيها..

ووصف ابن كثير الخاتمة الأليمة لسيدنا عثمان وصفًا دقيقًا مفصلاً، شملت مدة حصار داره، وكيفية قتله، ومن قتله، والمدافعين عنه، وما فعل به حين الغسل والتكفين والصلاة عليه ودفنه..

ثم جاء الحديث عن خلافة علىّ بن أبى طالب، فذكر فضله وسبقه فى الإسلام، ونفى عنه غلو الروافض وجهل الأغبياء، وناقش مناقشة موضوعية قضية الوصية ووصف القائلين بها بالكذب والبهت والافتراء العظيم.

وأفاض فيما دها الأمة من الخلافات والحروب والقتال فى وقعة الجمل وصفين، ومسألة التحكيم، وقصة خروج الخوارج ومبارزتهم عليًا.

---

(١) ص٢٤٨ جـ٦، ط مكتبة المعارف، بيروت.

**وساق أحاديث عدة بطرق شتى فى شأن الخوارج مثل:**

«يخرج قوم من أمتى فى آخر الزمان أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم، فإن فى قتلهم أجرًا لمن قاتلهم عند الله يوم القيامة».

ثم تحدث ابن كثير عن خلافة الحسن بن على، وما انتهت إليه من التنازل لمعاوية بن أبى سفيان حقنًا للدماء، وساق الحديث الشريف الذى رواه البخارى:

«أيها الناس إن ابن هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

**موقفه من معاوية:**

ترجم ابن كثير لمعاوية بن أبى سفيان ترجمة وافية، وذكر شيئًا من أيامه وما ورد فى مناقبه وفضائله، وبين الصحيح والضعيف والموضوع من الآثار فى ذلك.

ونقل عن ابن عساكر أن أصح ما روى فى فضل معاوية حديث ابن عباس: أنه كان كاتب النبى ﷺ. أخرجه مسلم.

وبعده حديث العرباض: اللهم علم معاوية الكتاب ـ رواه ابن عدى والطبرانى.

وبعده حديث ابن أبى عميرة: اللهم اجعله هاديًا مهديًا ـ رواه أحمد والترمذى والطبرانى.

ووصفه ابن كثير بأنه أول ملوك الإسلام وخيارهم، ونقل عن ابن أبى الدنيا أن عمر بن الخطاب وكان إذا رأى معاوية قال: هذا كسرى العرب.

وساق أن أبا مسلم الخولانى وجماعة معه دخلوا على معاوية فقالوا له: أنت تنازع عليًا أم أنت مثله؟

فقال: والله إنى لأعلم أنه خير منى وأفضل، وأحق بالأمر منى، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلومًا، وأنا ابن عمه، وأنا أطلب بدمه، وأمره إلىّ؟

فقولوا له: فليسلم إلىّ قتلة عثمان وأنا أسلم له أمره، فأتوا عليًا فكلموه فى ذلك فلم يدفع إليهم أحدًا، فعند ذلك صمم أهل الشام على القتال مع معاوية.

ونقل عن الحسن البصرى أنه كان ينقم على معاوية أربعة أشياء: قتاله عليًا،

وقتله حجر بن عدى[1]، واستلحاقه زياد ابن أبيه، ومبايعته ليزيد ابنه. .

**موقفه من يزيد والحسين:**

ذكر ابن كثير أن يزيد بن معاوية بويع بالخلافة بعد أبيه فى رجب عام ٦٠هـ وكان مولده سنة ست وعشرين.

وأفاض ابن كثير فى موقف الحسين بن على، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير من البيعة ليزيد وما جرى من أحداث أليمة. .

وأفرد الحسين فى البداية بالترجمة وذكر فضله ومحبة الرسول ﷺ له، وتحدث عن موقفه من بيعة يزيد، وما ورد إليه من كتب أهل العراق يدعونه من مكة ليبايعوه عقب موت معاوية ولكن أهل الرأى والمحبة له فى مكة أشفقوا عليه من الخروج إلى العراق وحذروه منه، وذكروه ما جرى لأبيه وأخيه معهم فأبى إلا المسير. .

وأورد ابن كثير صفة مقتل الحسين ورفض مزاعم الشيعة، وصحح أن مقتله كان يوم الجمعة، يوم عاشوراء من المحرم سنة إحدى وستين وقال:

ولقد بالغ الشيعة فى يوم عاشوراء فوضعوا أحاديث كثيرة كذبًا فاحشًا، من كون الشمس كسفت يومئذ حتى بدت النجوم، وما رفع يومئذ حجر إلا وجد تحته دم، وأن أرجاء السماء احمرت، وأن الشمس كانت تطلع وشعاعها كأنه الدم، وصارت السماء كأنها علقة، وان الكواكب ضرب بعضها بعضًا، وأمطرت السماء دمًا أحمر. .

وأن رأس الحسين لما دخلوا به قصر الإمارة جعلت الحيطان تسيل دمًا، وأن الأرض أظلمت ثلاثة أيام. .[2].

وتحدث ابن كثير عما يفعله أهل العراق يوم عاشوراء من الحزن والبكاء وخروج النساء حاسرات حافيات يلطمن الوجوه والصدور، وأن الناس ليلة عاشوراء لا

---

(١) كان يقال له حجر الخير وحجر الشرف، وبعض أهل العلم يجعل له صحبة مع رسول الله ﷺ وكان من أنصار علىّ فى الكوفة، وكان من عباد الناس وزهادهم، بارًا بأمه، كثير الصلاة والصيام.

(٢) ص١٠٢، جـ٨ مكتبة المعارف.

يشربون الماء موافقة للحسين لأنه قتل عطشان..

وفى مقابل هذا كان أهل الشام يتخذون من يوم عاشوراء عيدًا، يصنعون فيه أنواع الطعام ويلبسون أفخر الثياب، ويظهرون الفرح والسرور..

هذا وقد رفض ابن كثير تأويل القتلة بأن الحسين جاء ليفرق كلمة المسلمين بعد اجتماعها وليخلع من بايعه الناس، ووصفهم بالجهل، وأكد أن كل مسلم ينبغى أن يحزنه قتل الحسين فإنه من سادات المسلمين..

ونعى على الشيعة أفعالهم المصطنعة فى يوم عاشوراء، فقد قتل من هو أفضل من الحسين ولا يفعلون فى ذكراهم مثل صنيعهم فى ذكرى الحسين، لقد قتل على ابن أبى طالب وهو خارج إلى صلاة الفجر فى السابع عشر من رمضان سنة أربعين..

وقتل عثمان بن عفان وهو محصور فى داره فى أيام التشريق من شهر ذى الحجة سنة ست وثلاثين.

وقتل عمر بن الخطاب وهو قائم يصلى فى المحراب.

وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ومات الأنبياء قبله ولم يتخذ أحد يوم موتهم مأتمًا وعويلاً..

وتحدث ابن كثير عن قبر الحسين، ونقل عن بعضهم أن مكانه لا يعرف وأن موضع قتله عفى أثره، وأما رأس الحسين فقد اختلفوا فيه ما بين قائل بدفنه فى البقيع عند أمه أو فى دمشق، ونقل عن غير واحد من أئمة العلم أنه لا أصل لما يقال أن رأس الحسين وصل إلى الديار المصرية بعد سنة خمسمائة ودفن فى المشهد المشهور بها، وأن الفاطميين كذبة خونة روجوا ذلك على العامة وجاءوا برأس وضعوه فى هذا المكان وقالوا: هذا رأس الحسين فراج ذلك على الناس واعتقدوا ذلك.

وترجم ابن كثير ليزيد بن معاوية، وذكر أنه أول من غزا مدينة القسطنطينية سنة تسع وأربعين أو خمسين للهجرة ثم حج بالناس بعد مرجعه من هذه الغزوة، وقد ثبت فى الحديث أن الرسول ﷺ قال: «أول جيش يغزو مدينة قيصر مغفور له».

وذكر ابن كثير ما ليزيد وما عليه فقال:

وقد كان يزيد فيه خصال محمودة من الكرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة وحسن الرأى فى الملك، وكان ذا جمال، حسن العشرة.

وكان فيه أيضًا إقبال على الشهوات، وترك بعض الصلوات فى بعض الأوقات، وإماتتها فى غالب الأوقات. .[1].

ونقل ابن كثير أن ابن عساكر أورد أحاديث فى ذم يزيد كلها موضوعة.

**المختار بن عبيد الثقفى:**

تكلم ابن كثير عن المختار بن عبيد الثقفى، وكيف كان بغيضًا إلى الشيعة من يوم طعن الحسين وهو ذاهب إلى الشام بأهل العراق، وكيف التف حوله خلق كثير من الشيعة عندما بدأ يدعو إلى إمامة المهدى محمد بن الحنفية، ويظهر الانتصار لأهل البيت والأخذ بثأر الحسين.

وساق ابن كثير روايات تفيد أن المختار كان يزعم أن الوحى يأتيه وكان يظهر التشيع ويبطن الكهانة، وكان يوضع له كرسى يعظم ويحف به الرجال، ويستر بالحرير، ويحمل على البغال، يضاهى به تابوت بنى إسرائيل المذكور فى القرآن.

وقد قتله مصعب بن الزبير فى الرابع عشر من رمضان سنة سبع وستين للهجرة وله من العمر سبع وستون سنة. .

وقال ابن كثير: كان ضالاً مضلاً، أراح الله المسلمين منه بعدما انتقم به من قوم آخرين ظالمين، كما قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [الأنعام:١٢٩].

**محمد ابن الحنفية:**

ترجم ابن كثير لمحمد بن على بن أبى طالب، المعروف بابن الحنفية نسبة لأمة من بنى حنيفة. .

وذكر مزاعم الرافضة فيه وأنه بجبل رضوى، وأنه ما زال حيًا يرزق، وهم ينتظرون خروجه فى آخر الزمان، وساق شعر كثير عزة فيه حين قال:

ألا إن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء

(١) ص ٢٣٠، جـ ٨ ط مكتبة المعارف.

| | |
|---|---|
| علىّ والثلاثة من بنيه | هم الأسباط ليس بهم خفاء |
| فسبط سبط إيمان وبر | وسبط غيبته كربلاء |
| وسبط لا يذوق الموت حتى | يقود الخيل يقدمه اللواء |
| تغيب لا يُرى فيهم زمانًا | برضوى عنده عسل وماء[(١)] |

**الجعد بن درهم:**

فى تاريخ سنة أربع وعشرين ومائة ترجم ابن كثير للجعد بن درهم، ووصفه بأنه أول من قال بخلق القرآن. .

ونقل عن ابن عساكر أن الجعد أخذ بدعته عن بيان بن سمعان، وأخذها بيان عن طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم - زوج ابنته، وأخذها لبيد بن أعصم الساحر الذى سحر الرسول ﷺ، عن يهودى باليمن.

وأخذ عن الجعد - الجهم بن صفوان الخزرى وقيل الترمذى، وقد قتل الجعد يوم عيد الأضحى بالكوفة على يدى خالد بن عبد الله القسرى، خطب الناس فقال: أيها الناس ضحوا، تقبل الله ضحاياكم، فإنى مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليمًا، تعالى الله عما يقول الجعد علوًا كبيرًا، ثم نزل فذبحه فى أصل المنبر. .[(٢)].

وشاء الله أن يقتل خالد بن عبد الله القسرى شر قتلة، قتله يوسف بن عمر فبتر قدميه ثم ساقيه ثم فخذيه ثم صدره فمات ولا يتكلم كلمة واحدة ولا تأوه حتى خرجت روحه. .[(٣)].

**طائفة الراوندية:**

فى تاريخ سنة إحدى وأربعين ومائة ذكر ابن كثير أن طائفة يقال لها الراوندية خرجت على الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور، وكانوا على رأى أبى مسلم الخراسانى أول من دعا إلى بنى العباس. .

كانوا يقولون بالتناسخ، ويزعمون أن روح آدم انتقلت إلى عثمان بن نَهْيك،

---

(١) ص٤٢، جـ٩، تحقيق محمد عبد العزيز النجار ط مطبعة السعادة.
(٢) ص٣٩٤، جـ٩ ط مكتبة المعارف.
(٣) ص٢٠، جـ١٠ ط مكتبة المعارف.

وأن ربهم الذى يطعمهم ويسقيهم أبو جعفر المنصور، وأن الهيثم بن معاوية هو جبريل.

جاءوا يومًا إلى قصر المنصور فجعلوا يطوفون به ويقولون: هذا قصر ربنا، فأرسل المنصور إلى رؤسائهم فحبس منهم مائتين..

وفى تاريخ سنة ثمان وتسعين ومائتين تكلم عن ابن الراوندى ووصفه بأنه أحد مشاهير الزنادقة، وكان أبوه يهوديًا فأظهر الإسلام، وصنف كتبًا فى الزندقة منها:

الدافع فى الرد على القرآن، والزمردة فى الرد على الشريعة، والتاج فى الطعن والاعتراض على الشريعة، وكتاب فى قدم العالم ونفى الصانع وتصحيح مذهب الدهرية والرد على أهل التوحيد.

ويقال إن ابن الراوندى عاش ستًا وثلاثين سنة، وفى العمر القصير ارتكب كل هذه المخازى.

**فرق الكرامية:**

فى تاريخ سنة خمس وخمسين ومائتين تكلم ابن كثير عن محمد بن كرام، أبى عبد الله السجستانى العابد..

وينسب إليه جواز وضع الأحاديث على الرسول ﷺ وأصحابه وغيرهم، ولما حبس وطال حبسه كان يتأهب لصلاة الجمعة ويأتى إلى السجان فيقول له: دعنى أخرج إلى الجمعة فيمنعه فيقول: اللهم إنك تعلم أن المنع من غيرى..!!

وسكن ابن كرام بيت المقدس، وكان يجلس للوعظ، واجتمع عليه خلق كثير بلغوا عشرين ألفًا، وكان يقول: إن الإيمان قول بلا عمل..

**الاتجاه الاعتزالى:**

أرَّخ ابن كثير لأئمة المعتزلة، وسجل ما لهم وما عليهم، وعلى سبيل المثال فقد ذكر ابن كثير أن الشيخ أبا على محمد بن عبد الوهاب الجبائى وولده أبا هاشم عبد السلام قد أجادا فى الرد على كتب ابن الراوندى، ووصف الجاحظ المتكلم المعتزلى بأنه شنيع المنظر لجحوظ عينيه، سيئ المخبر، ردىء الاعتقاد، ينسب إلى البدع والضلالات، وكان بارعًا فاضلاً قد أتقن علومًا كثيرة وصنف كتبًا جمة تدل

على قوة ذهنه وجودة تصرفه، مثل كتاب «الحيوان»، وكتاب «البيان والتبيين».

وأشار ابن كثير فى تاريخ سنة سبع عشرة وثلاثمائة إلى أبى القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخى الكعبى، أحد مشايخ المعتزلة، ونسب إليه أنه كان يزعم أن أفعال الله تقع بلا اختيار منه ولا مشيئة.

**الاتجاه الفلسفى:**

لمعرفة رأى ابن كثير فى الفلسفة نشير إلى ما ترجم به لأبى نصر الفارابى فى تاريخ سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، قال:

التركى الفيلسوف، وكان من أعلم الناس بالموسيقى، بحيث كان يتوسل به وبصناعته إلى الناس فى الحاضرين من المستمعين، إن شاء حرك ما يبكى أو يضحك أو ينوم..

وكان (الفارابى) حاذقًا فى الفلسفة، ومن كتبه تفقه ابن سينا وكان يقول بالمعاد الروحانى لا الجثمانى، ويخصص بالمعاد الأرواح العالمة لا الجاهلة، وله مذهب فى ذلك يخالف المسلمين والفلاسفة من سلفه الأقدمين..

فعليه - إن كان مات على ذلك - لعنة رب العالمين..

مات بدمشق فيما قاله ابن الأثير فى كامله، ولم أر الحافظ ابن عساكر ذكره فى تاريخ لنتنه وقباحته.. فالله أعلم.

**الاتجاه الصوفى:**

تكلم ابن كثير عن التصوف وترجم لكثير من مشايخه، وساق أقوالهم وأحوالهم وقبل ما وافق السنة ورفض ما خالفها..

ونقل عن سرى السقطى وكان تاجرًا أنه قال:

احترق سوقنا فقصدت المكان الذى فيه دكانى، فتلقانى رجل فقال: أبشر فإن دكانك قد سلمت، فقلت: الحمد لله، ثم ذكرت ذلك التحميد، إذ حمدت الله على سلامة دنياى وإنى لم أواس الناس فيما هم فيه، فأنا استغفر الله منذ ثلاثين سنة..!!

ونقل عن أبى يزيد البسطامى (ت ٢٦١هـ) قوله:

إذا رأيتم الرجل قد أعطى من الكرامات حتى يرتفع فى الهواء فلا تغتروا به

حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى، وحفظ الحدود والوقوف عند الشريعة..

وحكى ابن كثير عن شطحات لأبى يزيد، تأولها كثير من الفقهاء والصوفية وحملوها على محامل بعيدة، وقال بعضهم: إنه قال ذلك فى حال الاصطلام والغيبة، ومن العلماء مَنْ بدّعه وخطأه وجعل ذلك من أكبر البدع، وأنها تدل على اعتقاد فاسد كامن فى القلب ظهر فى أوقاته..

وأفاض ابن كثير فى ترجمة الحلاج، واستعاذ بالله أن يقول عليه ما لم يكن قاله، أو يتحمل عليه فى أقواله وأفعاله..

وساق اختلاف الصوفية حول الحلاج (قتل عام ٣٠٩هـ)، فأكثرهم نفى أن يكون الحلاج منهم، وأبى أن يعده فيهم، وقبله من متقدميهم أبو العباس بن عطاء البغدادى، ومحمد بن خفيف الشيرازى، وإبراهيم بن محمد النصر آبادى النيسابورى، وصححوا له حاله، ودونوا كلامه، وقالوا:

الحسين بن منصور عالم ربانى..

إن كان بعد النبيين والصديقين موحد فهو الحلاج..

والذين نفوه من الصوفية نسبوه إلى الشعبذة فى فعله، والزندقة فى عقيدته، وأنه تعلم السحر فى الهند، وادعى أنه يمكن أن يعارض القرآن، واعتقد مذهب الحلول والاتحاد..

وبعد.. لقد كان ابن كثير موسوعيًا غزير العلم عندما كتب «البداية والنهاية» فلم يدع اتجاهًا فكريًا إلا وتحدث عنه وترجم لأعلامه..

وكان ابن كثير بارعًا ظهرت عبقريته الحديثية فى تعقب الروايات والتمييز بين الصحيح والضعيف والموضوع..

وكان ابن كثير ناقدًا بصيرًا يسوق الأدلة ويقدم الحجة ويدافع عن رأيه وينتصر لمذهبه فى مواطن شتى من تاريخه..

* * *

## المؤلف فى سطور

## الدكتور محمد سيد أحمد المسير

### أستاذ العقيدة والفلسفة ـ كلية أصول الدين ـ جامعة الأزهر

- حصل على الدكتوراه فى العقيدة والفلسفة بمرتبة الشرف الأولى من جامعة الأزهر ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.
- عمل أستاذًا مشاركًا ثم رئيسًا لقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية فى كلية التربية ـ جامعة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة ١٩٨٣ ـ ١٩٨٧م.
- عمل مستشارًا لوزير الأوقاف المصرى ١٩٩٢م.
- زار دول الكومنولث الإسلامية المنبثقة عن الاتحاد السوفيتى السابق ١٩٩٢م.
- أعير أستاذًا فى كلية الدعوة وأصول الدين ـ جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٩٩٣ ـ ١٩٩٨م.
- شارك فى لجان الاختيار لجائزة الملك فيصل العالمية.
- شارك فى عضوية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف.
- عضو الجمعية الفلسفية المصرية.
- يشارك فى الإعلام المقروء والمسموع والمرئى فى مصر والعالم الإسلامى.
- شارك فى كثير من المؤتمرات والملتقيات الفكرية المحلية والعالمية فى كل من: القاهرة ـ مكة المكرمة ـ مسقط ـ أبو ظبى ـ بغداد ـ الكويت ـ طهران ـ موسكو.

### • كتب للمؤلف •

**• فى العقيدة:**

١ ـ التمهيد فى دراسة العقيدة الإسلامية.
٢ ـ الإلهيات فى العقيدة الإسلامية.
٣ ـ الرسالة والرسل فى العقيدة الإسلامية.
٤ ـ النبوة المحمدية: الوحى ـ المعجزة ـ العالمية.
٥ ـ الشفاعة فى الإسلام.
٦ ـ تيسير العقيدة بشرح الخريدة.

**• فى الفلسفة والأخلاق:**

٧ ـ الروح فى دراسات المتكلمين والفلاسفة.
٨ ـ المجتمع المثالى فى الفكر الفلسفى وموقف الإسلام منه.
٩ ـ قضايا إنسانية فى الفكر الدينى والفلسفى.
١٠ ـ قيم أخلاقية من القرآن والسنة.
١١ ـ قضايا الفكر الإسلامى المعاصر.
١٢ ـ زلزال الحادى عشر من سبتمبر وتوابعه الفكرية.

**• فى الأديان:**

١٣ ـ المدخل لدراسة الأديان.
١٤ ـ أصول النصرانية فى الميزان.
١٥ ـ المسيح ورسالته فى القرآن.
١٦ ـ أوروبا والنصرانية.
١٧ ـ عبادة الشيطان فى البيان القرآنى والتاريخ الإنسانى.

**• فى الفرق الإسلامية:**

١٨ ـ مقدمة فى دراسة الفرق الإسلامية.
١٩ ـ قضية التكفير فى الفكر الإسلامى.

**• فى السيرة النبوية والحديث الشريف:**

٢٠ ـ الرسول فى رمضان.
٢١ ـ الرسول حول الكعبة.
٢٢ ـ الرسول وقضايا المجتمع.
٢٣ ـ الرسول والموافقات.
٢٤ ـ وعندئذ قال الرسول.
٢٥ ـ شرح الحكمة النبوية.

**• فى الشريعة الإسلامية:**

٢٦ ـ محاورة تطبيق الشريعة.
٢٧ ـ نحو دستور إسلامى.
٢٨ ـ أخلاق الأسرة المسلمة.
٢٩ ـ العبادات فى الإسلام.

**• فى التحقيق:**

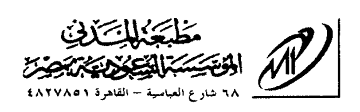
أ ـ مؤلفات فضيلة الدكتور/ سيد أحمد رمضان المسير ـ رحمه الله تعالى:
٣٠ ـ السنة مع القرآن.
٣١ ـ السنة المطهرة.
٣٢ ـ إلزام القرآن للماديين والمليين.
٣٣ ـ دراسات قرآنية.
ب ـ مؤلفات فضيلة الشيخ محمد على سلامة ـ رحمه الله تعالى:
٣٤ ـ منهج الفرقان فى علوم القرآن.

**• كتب نفدت وأعيدت طباعتها تحت عناوين أخرى:**

٣٥ ـ فى نور العقيدة الإسلامية.
٣٦ ـ أدب الحديث عن الله.
٣٧ ـ علم التوحيد للشهادة الإعدادية الأزهرية.
٣٨ ـ الحوار بين الجماعات الإسلامية.
٣٩ ـ الرسول والوحى.

# فهرس الموضوعات

* * *


مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة ٤٨٢٧٨٥١